رواية

أنثى العنكبوت

إسراء عبد التواب

سما
للنشر والتوزيع

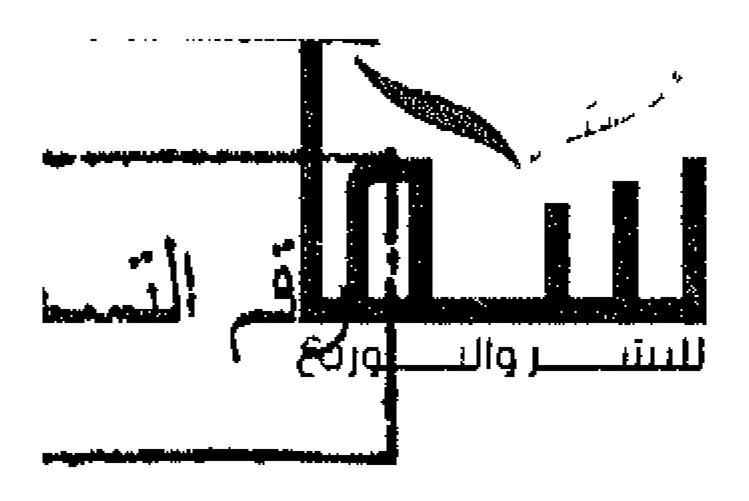
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

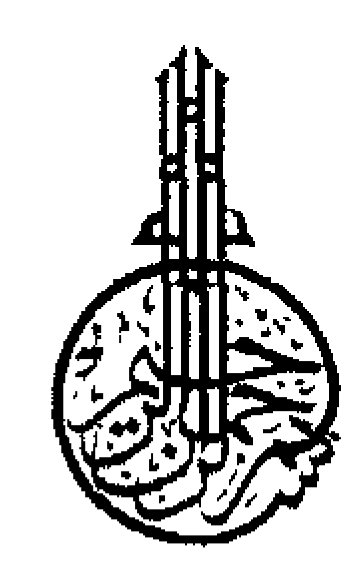


رواية

تأليف

إسراء عبد التواب





العنوان: أنين العنكبوت (رواية)

المؤلف: إسراء عبد التواب

إشراف عام: نجلاء ماسم

الناشر



15 ش يوسف الجندي ميدان باب اللوق
أمام مول البستان وسط البلد
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيع

المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون 24518068 - 01099998240
emil aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف: إيمان صلاح

إخراج داخلي: معتز حسنين

الترقيم الدولي: 978-977-6451-83-4
رقم الإيداع: 15857 / 2014
الطبعة الأولى: يناير 2015


أنثى
العنكبوت

إهـــداء

إلى المفكر «عبد الوهاب المسيرى»
الذي علمنى حب الوطن...

إسراء عبـدالتـواب

الفصل الأول

أول الحب ليس كآخره

كانـت تريـد أن تكتـب لتقتل هـذا الصوت الداخلـي الذي ظل يهاجمهـا كلما ألقت بنفسـها إلى ذاتها. تغـرق في دوائر ممتدة ولا تخـرج منها ويظل نزيـف القلم قاتمًـا كلون عذابهـا. عندما كانت تختلـي بنفسـها وحيـدة لا ترى في الجدران سـوى أربعة أشـباح، كان يأتيها الصوت مهاجما بقسـوة: لماذا لا تنسني وتحملين بداية جديـدة على رأسـك، وتهربين مـن كل الذكريـات الكئيبة؟ ورغم رقـة الصـوت الـذي كان يقتلهـا إلا أنها لم تعرف حتـى الآن كيف تنسى ولا تريد أن تتذكر. تعرف فقط أنها صارت معلقة في جلدها ليمتص الفراق من جسدها الدم بنعومة القتلة.

قالـت لنفسـها يومًا إن مهارة قتلة البشر تفوق مهارة إبليس ذاته، وأنه كان جميلا في ثوبه الطاووسـي ولكنه تمرد على الرب، لكنها حتـى الآن لا تعـرف كيـف تتمـرد على رقـة الصوت الـذي ظلت معه لعشـر سنوات تنسـج معه الحنين معتقا فإذا بليلة كليالي الجنة تـرى عيونها لأول مرة وهي متوهجة وتتوقف سـنوات نومها دفعة

واحـدة وترى بصرها قد صارحديدًا، ظلت تردد تلك الآية القرآنية الكريمة: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ تستيقظ من النوم عدة مرات فزعة وتردد الآية وتراها مثلما لم تراها من قبل «مجرمة فاجرة».

تكتـب فـي ورقة بيضـاء من ورق الدشـت «أنها أحبتهـا كما لم تحـب فتاة مثلها» تمـزق الورقة وتبكي، تظـل اللعنات تتقاذف من فمها وتتركها الراحة، ونوم يقظ يهاجم سـريرها كلما ألقت بنفسها عليـه. النـوم الذي لا يأتي يسـبقه طعنة تسـتقر في القلـب فتتحول الشـرايين كلهـا إلى قصص لابد أن تحكى، كل شـريان هنا شـاهد على الحب وإنفعال الحب وكراهية من أحبت.

صارحت «سـمر» أنها لم تعد تحب صديقتهـا، ولكنها صارت تشـمئز مـن كل التفاصيل التـي جمعتها بها. صمتـت الأخرى في حـزن، كانت تعـرف أنها عشـقت الحكي لهـا لسـنوات لأن أحدًا غيرها لن يفهمها مثلما تنظر إلى عينيها بحب تبكي لها وتقول:

«في بعادك تعبت قوي» تتفرس عيوني وكأنها تتوقع ما قلته.

- أعرف ذلك تمامًا....

حينمـا أراكِ أشـعر أني قادرة على الحكي، قـادرة على أن أكلم نفسي، بل أصرخ لكِ دون خجل.

تلتقط سمر منها الكلمات وتهدئها:

- أهم شـيء أننا لابد أن نرى الأشـخاص كما هم لا كما نراهم نحن.

- احمدي الله على نعمة النور.....

تتركهـا «ريتـا» وهـي تلتقـط بـونَ الطعـام منهـا وتخبرهـا أنها ستحضره لأن الطابور ممتلئ ولـن تطيق الوقوف فيه. لا تعارضها «سـمر» تمشـي بضع خطوات إلى الكاشير لا تشـعر بالضجة التي يحدثهـا الزبائـن من حولهـا تلتقط البـون وتغالب الجـوع قبل أن تطلب «اثنين من بانية الدجاج».

تنظـر «ريتا» لهـا من بعيد تراها وهي صامتـة، عيونها تبحث في الأرض عـن حلم هـارب، وانسـياب وتوتر أقدامهـا على الأرض تعطي لي إحساسًا دفينًا بالرغبة في الرحيل، تعرف أن الضجر صار يبني بيتا له في أقدامها تشعر بقشعريرة وهي تلتقط الطعام من عامل المطعم، تشـعر بنغزة في صدرها وتعـرف أن الضجر أيضًا بنى بيتًا مثلها ولكن هذه المرة في جانبها الأيسـر مـن الصدر. تنظر لها في حب وبابتسامة عذبة يستكملان الحكي تقول لها:

- لقد غيرتك أمريكا كثيرًا وأنا سعيدة بذلك.

تبتسـم ابتسـامة خفيفـة كالأطفال تـكاد تتحـول لضحكة وهي تتعجب:

- يا سلام.........؟!

- طبعًا.

- إزاي......؟؟

- قمت بقص شـعركِ رغم عشـقي لطوله. تدمنيـن الكاجوال، ترمين بعض الأشياء وراءكِ، بل كل الأشياء بما فيها تفاصيل الحياة الأكثـر تعقيـدًا، والغريب أنـك صرتِ تعشـقين تنـاول الطعام في أماكن مفتوحة وأنا لا أحب أن يرانا البشر هكذا وكأننا متسولتين.

تضحك تلك الضحكة العالية التي تظهر فيها شفتاها المقضومة، تقاطعها:

- هيا بنا يا عمدة.

- ولكننا لم ننتهي حتى الآن من طعامنا.

- مـش مهـم وحشـتني قهـوة «ليلـة» قـوووووووووي، وحشتني مصر.

تضحـك على طفولتها وتؤكد لها أنها مثلها قد إشـتاقت لرائحة شيشة التفاح.

تقـذف فـي ذاكرتها عندما قالـت لصديقها الـذي فارقته رغبتها الجارفة وحبها لتلك الرائحة فنهرها وقال لها: «يا ريت ما أسمعش منك ده تاني أنتِ بنت وهتتفهمي غلط».

تضحك من سذاجته وتغني «كانت لنا أيام».

تريـد أن تتوقف ذاكرتها كليًّا فلا تهاجمها كسُـمّ حيّة تخرج من جحرها في الليل وتسكب كل جوفها في الرأس ويظل وجه ما قبل الموت عذابًا ماحقًا.

الذكريـات لـم تكن حلمـا جميلا لأنهـا أصبحت تلسـع ببطء، وذاكرتهـا معهمـا تتجمهـر فـي اليـوم ألـف مـرة تعيـد لقطاتها مع مَـن أحبـت بإخلاص ومَن آذوهـا بدناءة، وتعنف نفسـها على أنها إتخـذت قـرارًا بالقطيعة، وفي نفس الوقت تسـكت الصوت بقوة: «كان قرارًا صائبًا وفي محله وتأخر كثيرًا».

تريد أن تنخلع من جلدها لأنها تعاني فقط عندما تراهم شـهودًا على «لعبة الإستغفال».

نحـن نحب فقط حينما نكـون طيبين ومغفليـن ويملئنا العمى، نسـمح بأيـادٍ توجهنـا كيف تشـاء، وتبتعـد ذاتنا عن نفسـها وتدور فـي دوائرهـم ويحتكمـون لهذا الدوران سنين، كلمـا أتقنَّا العمى يدوخوننا بإجرامهم، وتظل الروح تبتعد كثيرًا عن الذات، ونسـقط في عمق المحبة، وننسـى ما تحكيه العيون من أننا موجودون فقط معهم لأننا طيبون وأكثر غباء من ذي قبل.

تشـرد مع «سمر» وهي تنفس دخان الشيشة، تريد أن تخرج كلَّ ما فيها كي تنسى مثلها.

في ركن منسي بالقهوة تختار مكان جلوسهما، تحب تلك الأماكن التي تبتعد فيها الناس عنها وتضيق بكل مَن يقترب منها، صارت لا تحب اللمة، تريد أن تجلس مع من يشبهها فقط، لا تهتم بالصداقات الجديدة، سئمت الكل.

«الغُلب بيننا صديق مشترك».... تطلقها «سمر» وشفاها تلتصق بمبسم الشيشة وتخرج نفسًا عميقًا ممتدًا تلفظه بضجر وبرغبة قاتلة في إبادة ذاكرتها الأولى.

تبتسم «ريتا» إبتسامة تعانق الحزن وتنفلت منها آهة متوجعة كبيضة صالحة في السلات العفنة. لم تختر لنفسها (الغلب) لأن ما كتب على الجبين لابد أن تراه العين.

لم تك تحب تلك الثقة التي كانت ترمقها بها «سمر» وهي تؤكد لها أنها ما زالت صغيرة على فهم الحياة.

تغضب «ريتا» من هذا التصور الساذج عنها وتشيح بوجهها بعيدًا لأنها لم تكن صغيرة ولم تكن كبيرة. بل صارت معلقة في حبل الفهم تسابق الزمن عليه تكبر وأحلامها تتعلم أن تكتفي بالتواضع، ويومًا عن يوم تمشي مثل السلاحف بطيئة ومطمئنة أن القدر لن يمنحك سوى ما يقرره لكِ رغم أنكِ كنت محلقة تتغني بالطيران يومًا.

تصارحها «ريتا» في حزن: «أين الابتسامة الأولى والضحكة الأولى والنبضة الأولى والحزن الأول والحب الأول.. أين البراءة في الأشياء؟».

تكتفي «سمر» بصنع دوائر من دخان الشيشة -وهي تسمع كلماتها، تلتف حول بعضها وتشكل خيوطًا عنكبوتية.

تكره «ريتا» كل هذه الدوائر، تصير غريمتها، تريد تمزيقها واحدة وراء الأخرى. ينتفخ بطنها من الدخان فتحاول خجلًا مداراتها.

تعلمت منذ سنوات أن تتكيف مع لعنة «القولون» تمازحه يوميًّا، وهي تريد أن تحكي لها ما تركته من ذكريات مطروحة أرضًا على أرصفة الطرق. وهي تمشي في ميدان الجيزة مع من فارقتهم، كانت تتحول الأرض إلى سحب تمشي معهما، يمشون هم الثلاثة معلقون إخوة في سماء واحدة، كانت الأرض تستقبلهم بخفة وتغني مع الأصدقاء.

تتوسطهم «ريتا»، كانوا يحبون وضعها دائمًا بينهم وهم يتغامزون بالنظرات يضحكون عليها وعلى نظرتها الساذجة للأشياء من حولها. يجدونها مطيعة وغبية بقدر كبير، يسمونها «طفلتهم» طفلة نزقة طول الوقت، تصرخ في وجههم بتوجع:

- «مارسوا نعمة الصمت لدقائق..... يا ساااااااااااااااتر».

تخرجها وشيء يحترق بداخلها لا تعرف ماهيته. يقتلونها بكلمة «حاضر» ويتركون الصمت يمتد بينهم ولكن الحوار كان يدور في رأسيهما، وتقف كعادتها بينهما لا تفهم أو تريد أن تستغبي فهمها لتستمر معهم أكبر فترة ممكنة.

تعود إلى تلك المساحة للطريق الشفاف معهم، طريق سلكته هي فقط، وعلى الأطراف كانوا يسلكون طريقا آخر يبتعد ويشكل يومًا عن يوم حاجزا لا مرئيًا بينها وبينهما. ظلت تقنع نفسها أنها لا تراه، ولكن في سريرة نفسها كانت تعرف أنها ستبتعد في يوم ما.

تمد الوصل نادرًا والضجر كان يضغط بقوة فيحولها إلى مجنونة. تتوجع من الكلمة لأنها صارت إدانة حقيقية لها، هكذا قال عنها صديقها يومًا: «دي واحدة مجنونة وتحتاج إلى مجنون مثلها».

النافذة التي سيبررون من خلالها تسلل رجل غريب إليها بعيد تمامًا عن جنونها هكذا كانوا يكرسون في عقلها فكرة الجنون بشكل ملح، هكذا كانوا يرددون بين أصدقائهم المشتركين حتى تختنق وتصدق أنها مجنونة.

يقترب الرجل الغريب بمكيدة محكمة من صديقتها. خطة لا تقبل الشك أوإحتمال وجود مؤامرة لتبتعد هي حتى يتنفسون جيدًا بعيدًا عن جنونها وضجرها ومللها وأحلامها. كانوا دائمي التأفف من كل ما سبق ويريدون غرق كل الأشياء معها في

البحر دفعة واحدة لتثقل جثتها حتى تستلم لنوم عميق فلا تفيق منه أبدا..إجرامهم كان مكتمل الأركان لا يترك وراءه تفاصيل تشى بالتورط في كارثة. هكذا كانوا مستعدون دائما لقتل البشر دون رصاصة وكأنما يقتلون نمل صغير تحت أحذيتهم، وهم يعرفون أنه لا صوت له حتى تكتمل سعادتهم الخبيثة. لم يسمحوا لأحد أن يسطوا على فرحتهم أو يكون له هواية الفهم ليمارس الفرجة عليهم من بعيد أو قريب.لم تتحمل كل هذه العذابات لذا جف جلدها وإحتك بالعظام وصارت تنحل يوما بعد يوم.

إعتكفت «ريتا» في غرفة نوم أمها، وقررت مقاطعة العالم والإحتماء بأمان مفقود مع الأصدقاء.جلست وحدها في غرفة أمها الحزينة، وعلى سريرها تمددت فشمت رائحة الراحلين. تسللت رائحة أبيها وجداتها وعمها الحنون في ثنايا الوجع وشعرت بالإنتماء لشيئ نظيف ونبيل.

تنفست على السرير بصعوبة وشمت رائحة الموت في الوسائد والملاءات البيضاء. فكت ضفائرها لتحررها، أحضرت مكعبات من الثلج تهدأ سخونة الرأس، تلهفت على أصدقائها وكان الوجع يقسمها نصفين..نصف معذب بالقطيعة ونصف مازال يبحث عن حقه منهم فلا يجده. الحق الغائب كما الشرف الملطخ بالدماء.. تعرف أنها لم تكن مثل صديقتها قادرة على شرح كل صغيرة وكبيرة. كانت ماكرة لدرجة جعلتها لا تحمل معها أى فراغات

دون أن تملئها بالكذب والحنان المصنوع. لذا كانت «ريتا» تكتفى بالصمت وتنزوى فكل الدوائر تضعها الأولى حولها حتى لا تستطيع التفسير مثلها عن ذاتها المتألمة فتركتها في إنطواء دائم سبب لها عجزا عن الكلام. كيف تتكلم إذن..؟.

هل تستطيع أن تحكى المكيدة والآخرون صدقوا أنها مجنونة. إكتفت بحمل «الجنون» مثلما ظنوا وإلتف الخرص حولها فقتل إعترافاتها.

تحولت «ريتا» إلى كتلة خرسانية صماء ومصمته ومنغلقه على نفسها، وكانت الصديقة هي المتحدثة الرسمية بإسمها. تقول نيابة عنها الأشياء التي تحبها. لكنها لم تكن في الحقيقة تحب تلك الأشياء. تخبر الآخرون بجنونها ولم تكن حقا مجنونة. تقول أنها عجزت عن فهم برجها الحائر، وهى تدرك بكامل وعيها ما كانت تفعله لتحكم حولها القيود.

تكتم «ريتا» تلك الحواجز التي تضعها الصديقة حولها فكانت تبدو وكأنها مستسلمة لقرص مخدر أفقدها الرغبة في الكلام، وعندما كان يذوب مفعول المخدر فتحاول القفز عليها تتعثر في محبتها، تتراجع مرة أخرى. تؤجل التمرد عليها وتزداد إحتراقًا، تدق في رأسها عبارات أمها وهي تصرخ في وجهها: «عبِّري عن نفسك ولا تتركي أحدًا يتحدث نيابة عنك».

تصرخ في وجهها: «بحبهاااااااااااااااااااا».

تهـرب بعيـدًا عنها وتجـرى في كل غـرف البيـت وتندفع على باب غرفتها بقسـوة،تغلقه وتستند عليه من الداخل وتبكي وتنزف، يتلطـخ سـروالها ببقع دمـاء وتزداد نحولًا، تسـمع أمها تشـنجات وجعها خلف الباب الفاصل بينهما، تترجاها أن تفتح ولكنها تستمر في العناد، تكسر باب غرفتها بمساعدة إخوتها الذكور وتصرخ في وجهها: "لا تسـتحق أن تنزفي من أجلها لماذا تصرين على المحبة لقـد إمتصـت منك الدم. لـم أعد قادرة على رؤيـة نقطة واحدة من دمائك في وجنتيك..وشك شاحب بقيتى عجوزة».

تنهار مقاومتها تمامًا وتفقد الوعي وتغيب عن الحياة فترة ليست بالقصيرة. تتلقفها أمها في أحضانها وتحضر الطبيب ولا تشعر هى سـوى بسـائل يتسـلل إلى ذراعها الأيمن فيخدرها. تغـرق في نومٍ عميقًا يمتـد لأيام طويلة، وتهمل عملهـا بالجريدة، وعندما أفاقت تعكـزت علـى ما تبقى مـن صحتهـا لتواصل عملها. مشـيت على قدمها بثقل وكأن الطرق مدن من الملح.عندما دخلت إلى الجريدة بعد النقاهة تحولت روحها لمنبع من الأرق. كل ما تراه في المكان كان يحيلهـا إلى وجه تكرهه، وجهها النحيل الذي صارت تكرهه، وجه يسأل عنها فقط بعد غياب ممتد ليشبع رغبته الجارفة في حب المعرفـة والتطفـل على قصـص الآخرين لا محبة فيهم بل لتتسـع حدقـة الفهم عنـده، ويكون قـادرًا علـى التنبؤ وإسـتغلال اللحظة الحاسمة لتوجيه الضربات وهو يرتدي قناعًا زائفًا من الحنان.

كانت «ريتا» تعود ثم سرعان ما تتدهور لنفس حالتها الأولى وتبدأ في الغياب من جديد. تتصل صديقتها بها وبنبرة تحمل سخرية لاذعة تقول لها: «أنتِ ما بتبطليش تعب» وعندما يسألها الأصدقاء عن سر غياب توأمها تمط شفاها بتغنج خبيث وتقول لهم «تعبااااانه» وهى تصر على نطق الكلمة وهى مصحوبة بآهات ممدودة بسخرية، لتترك الآخرين يشعرون بملل من ذكر مرضها.

كلما كانت تطمئن عليها تتسلل رائحة كريهة من صوتها تعانق الشماته، ولا تجد ردًّا عليها بعد صمت ممتد سوى غلق الهاتف في وجهها، والتقيؤ بعده بإندفاع. صارت ترى كل أعضائها كاملة، تنزع ملابسها عنها وأفكارها ودلالها وذكاءها وتصير عارية أمامها، لم تتحمل «ريتا» أن ترى كل هذا العري الذي غلف وجهها كلما تلاقت نظراتهما، لذا كانت تبتعد حتى لا تراها كيف تتحرك دون ستر دائمًا، تبحث «ريتا» عن مهرب، لقد أصبح كل شيء معطلًا في رأسها، تصحو وتنام. تنام وتصحو وكل شيء متيقظ في رأس الصديقة، كل شيء يمشي بإيقاع ثابت كنظرات عيونها الحائرة كصقر متيقظ.

بداياتها معها كانت سعادة ملتهبة. أول لقاء بينهما كان داخل مدرج كلية الإعلام. أحبت النمش الذي كان يسبح في وجهها وشعرت إتجاهها بألفه. لم تكن تحب وجوه الفتيات الجميلات كانت تراهن يخبئن ورائه عقلية غارقة في بحر من الغباء والثقة

المستمدة من طبقات مساحيق التجميل. كانت ترى في الجمال المنقوص فلسفة خاصة تلفت إنتباهها. أبهرتها وهى تتحدث في محاضرة عن فن «الكاريزما» عندما وجه لهم أستاذهم المحبب سؤال عن ما معنى كلمة «كاريزما» وما هى الأدوات التي على الإعلامى أن يمتلكها لتميزه عن الآخرين....؟

رفعت صديقتها يدها وكانت «ريتا» تنتظر أن تتحدث فقد كانت خجولة وكانت تراها دائما وتعجبها نظرتها الثاقبة للأشياء. لكن لخجلها الدائم كانت لا تبادر بالتعارف.

إنتظرت أن يهيىء لها القدرفرصة حقيقية لتتحدث معها بإستفاضة ووجدتها عندما رفعت يدها وسمح لها الدكتور بإعلان إفادتها عن سؤاله داخل المحاضرة.

كانت صديقتها تدرك جيدا فنون الإتصال. تغلبت هى كذلك على خجلها وإحمرار وجهها الدائم الذي كان يلازمها كلما تحدثت وسط الجموع وشرحت بثقة أهم المقومات وساقت إجابات مقنعة ومبهرة في الوقت نفسه. هنا إنتهزت «ريتا» الفرصة لتكلم نفسها داخل المحاضرة وسط صخب التصفيق الحاد لها وقالت داخلها: جاتلك الفرصة أهو إوعى تترددى تكلميها بعد ما تخلص على طول.

إنتهت المحاضرة وتسللت الآخيرة بمشية سريعة ميزتها ولم تلحقها سوى على سلالم الجامعة قرب أبواب الخروج. كانت

«ريتـا» تتباطـئ فـي المشـئ عندمـا وجدتهـا تتحـدث مـع صديق بإسـتفاضة وتطلـق ضحكتهـا العالية. وجـدت في البطئ مســاحة لإنتظارهـا حتى تنتهى، وكانت صديقتها تنظـر إلى عينيها من بعيد وكأنها تقرأ ما كان يدور في عيون «ريتا».

أسـرعت صديقتها بسـرعة لتقترب منها وقالت لها: إنت ماشية ببطـئ ليه رجليك بتوجعـك «فأجابتها وهى تضحك: لاء بس إنتى عارفة بقى أن سـلالم الجامعة دى غريبة شـوية ما بتاخديش فرصة تبدلـى رجل وراء التانية لدرجة سـألت بعض الناس هى السـلالم ليـه كـده فقالولى: دى متصممة خصيصا عشـان الـزلازل.. كانت صديقتها تبدو مهتمة بسماع التفاصيل منها وقالت لها: ممكن بس مين إللى قالك كده تحديدا...؟؟

لـم تهتـم «ريتـا» بالإجابة عن السـؤال. بـل أثنت علـي إجابتها خـلال المحاضرة وقالت لها: واضح إنك بتقرى كتير وده باين في مخارج الألفاظ عندك وكمان في الوعى.

كانـت إشـادة فتحت لها مجـالا للتحدث. إسـتقبلت هى الثناء بإبتسامة خجولة إحمر لها وجنتيها وشكرتها: ميرسي وإنتى واضح كمان إنك بتحبى تقرى.

ردت عليها «ريتا»: ياعنى بس أنتى بقى بتحبى تقرى لمين ؟

ضحكت بثقة زائدة وأطلقت إعجابها: «عادل حمودة».....

.نظرت لها في صمت وخوف وتطلعت لها: هو صحفى شاطر بس مش عارفة ليه بأحس أنه بيتلاعب بالكلمات ومش بحب نوعية الكتابات دى.. كانت تنتظر منها دفاعا عن نجمها المبهر،ولكنها فاجآتها: أنا قولت بحب كتابته بس مش معنى ده إنى بحب أقلده في فرق..!!

فاجأتها سرعة الردود وذهنها المتيقظ.فواصلت الدردشة: تمام شكلك كده بتحبى اللغة الأدبية في الكتابة.مطت شفتاها ولم يستثيرها سؤالها وقالت: ياعنى ثم أتبعتها «أكيد».........

تستيقظ «ريتا» من غفوتها وكأن أحلام اليقظة تعيد إنتاج مشاهد الماضى بكامله.تأسف «ريتا» لما مضى وتردد في حزن بينها وبين ذاتها: أول الحب ليس كآخره

أدركت أنها كانت تتسلل إليها ببطء شديد، لا تحب التمكن الذي يتسلل بسرعة إلى القلب. تعشق الحركة المدروسة التي تشبه بطء السلاحف، وتحجز لها مكانًا في القلب، بل تحجز براحًا أكبر من الذات لنفسها، وحينما توقن التمكن منه تبتعد مسافات حتى يجن جنون الآخر. كانت تشبه «ماتا هاري» الجاسوسة التي دوخت شعوب العالم بدلالها وكأنها جنية توزع الحلوى الساحرة على شفاه العشاق. ظلت تبحث عن روحها معها لكنها ظلت تستبدل روحها بها، عرفت أن الحب الحقيقي لا يضيّع أرواحنا لكنه يجعلها حاضرة دائمًا معنا، لذا لم تستطع «ريتا» تطبيق

نظريتها حينما قالت لها وهي تعلمها كيف تمشي بلا قلب: «لا تسمحي لأحد أن يتربع داخل ذاتك ويتحكم في مزاجك النفسي، أي شخص يقترب من ذاتي حتى لو كنت أعشقه أدفعه مباشرة، يقترب مني فقط بإراداتي الحرة».

الآن تتذكر ردودها فتتفاجئ بفهم مختلف لما كانت تتلقاه، تأكدت أنها سقطت في فخ حبها، كان جمالها يصعب تفسيره كما يصعب مقاومته؛ لذا لم تترك لها مسافات بعيدة عن قلبها كي تتسلل إليه، تركته مفتوحًا لها كي تتربع، وحين قررت أن تلفظها من دمائها بإرادتها الحرة تقطعت شرايينها ونزفت برجفة. لم تكن «ريتا» تشبهها. بل كانت الصديقة تشبه «أنثى العنكبوت».

توقن تلك اللغة التي تمنحها سحرًا خاصًّا حتى لكأنها تجعلك لا تنام إلا وأنت تفكر فيها. العفوية تغيب عن كلماتها، وتعانق الإبهام لأنها أنثى من «برج العقرب»، تهوى التلاعب بالجمل، تهرب اللغة بعيدًا حين تدخل معها في صراع، تفتح لها ممرًّا كي تعطيها الأمان، وبهدوء حذر تقترب منها وهي متوجسة، ولكنها حين تقبض عليها تميتها بداخلها، تلوكها بين شفاها وتتحدث بثبات، كأنه لا توجد أي معركة حسمت لصالحها منذ دقائق. تحب بطلات الروايات التي خانت الحبيب من أجل اللغة. الوضوح كلمة منبوذة من قاموسها؛ لذا هي لا تحب الحبيب الذي يسهل قراءته، تعشق أكثر منه «السوبر مان» الذي يضاجع اللغة ألف مرة

في اليوم، وكلما ضاجعها مرارًا تعشقه أكثر، تصير بينها وبينه آلاف الشفرات التي لا يستطيع أحد أن يتجرأ ليفك طلاسمها.

تمنح هي فقط لحبيبها فك الألغاز. لقد داخت «ريتا» مرارًا في تلك اللغة. عرفت من خلالها أن الحب لابد أن يكون منبعًا للغة الحائرة بين أن نقول وألا نقول، بين أن نرقص وألا نرقص، بين أن نعشق وألا نصرح بالعشق. عرفت منها أن الحياة تشبه لعبة «الحجلة»، دائما نحن في حاجة إلى القفز من مكان إلى آخر وألا نستقر وألا يسرقنا الوضوح. إنها لغة الحياة التي إن فهمتها ستكون قادرًا على الإستمرار وعدم الوقوع في الحفر العميقة.

كانت «ريتا» بسذاجتها تراها دائمًا توأمها، بل أمها، كانت تنظر إلى الكل على أنهم يشبهونها وما دامت صديقتها فصيل أساسي في العشرة، فلابد أن تكون مثلها تشبهها في كل الأشياء التي تحبها. لكنها لم تكن في الحقيقة سوى حقل تجارب لوعائها. تنظر لها من بعيد حين تقع وتكسوها الشفقة على هذه الصغيرة التي لا تكبر أبدًا، بل كل يوم تصير أكثر دهشة مع تقدم السنين ولا تمل من السؤال عن سبب وجود الشر.

كانت تسند رأسها للوراء على الكرسي الدَّوَّار الذي كانت تعشق الدوران به، وهي تتنقل بين حكاوي «ريتا» وتظل تضحك ضحكات متتابعة وهي تسرد لها خريطة يومية بكل ما تشعر به في اليوم الواحد، كل أفكارها تتبخر لها بما فيها حديث النفس الذي

كانـت تحكيـه بينها وبيـن ذاتها، وهي تحـاول الإجابة عن سـؤال واحد «لماذا غابت الدهشة عن الجميع...؟».

تضحـك هـي ورفيقها على تلك الأسـئلة المملـة التي لا تكف «ريتا» عن حملها إليها والرحيل بها وتكرارها للعودة بها مرة أخرى في المرة القادمة، لم تكن الصديقة تحكي أسـرار مثلها لم تحادث نفسـها معها، كل شـيء صارحتها به كان مدروسًـا، كل شـيء كان قليل الإفشـاء معها، كل شـيء كان يحمل رسائل، وما أصعب نوع هذا الإرهـاق. تحب هذا التكتم الذي كان منبـع روحها الغامضة. لكن «ريتا» ظلت تحكي، كانت تؤمن أننا حين نحب شخصًا فنحن نحكـي له مثلما أحبت «سـمر»، وكانت لا تمل مـن الحكي معها، لكنهـا لم تكن مثل «سـمر»، لقد كانت تكره تكـرار الأخطاء، ومن يجهل لعبة «الحجلة».

السرطان لا يمكن أن يكون عقربًا، والعقرب لا يمكن أن يجهل لعبـة «الحجلـة»، ليس هـذا ما علمنا إيـاه الدكتور «ضيـاء». هكذا حادثـت «ريتا» نفسـها: الحب أبسـط مـن هذا بكثيـر. الحب يغفر الأخطاء بل يفشـي كل الأسـرار ويعانق الوضوح، ويلتقط الأيادي التي تتعثر دائما ويقف بجانبها. لا يمارس الفرجة»..

هكـذا، كان يعلمهما المفكر الذي تتلمذتا علي يديه. كان يقف في بيته وهو يعلمهما فن الحياة والحب يقف وراء مشربية المغربية

ببيته بمصر الجديدة، وقصص الورد البنفسجي تملئ شرفتها، ويده تستند برفق على كتف «ريتا» ويقول لهن:

- «إننا جميعًا حين نحب نتحول كالأشجار، نطير بكل ما فينا وتطير معنا الحكايات ونتمايل مع الأوراق، بل يملئنا الصمت أحيانًا كثيرة؛ لأننا قد نتعثر في الكلمات التي تعبر عن مشاعرنا فنصمت كثيرًا، وحين تنطق اللغة تنطق بعفوية لتقول إننا نحب ويكفينا هذا الحب».

لقد كانت «ريتا» تمشي صامتة معها كثيرًا لأنها أحبتها، لكنها كانت تكره صمتها الذي يضعها دائمًا في مواجهة مع الآخرين وهم يسألونها «لماذا تصمت هكذا؟!». كان الكل يردد بل يضيف بتطفل «ألا تجد من الكلمات ما تنطق به..، هل هي بكماء هكذا طول الوقت..؟»

تضحك في مكر وتخبرهم أنها مكتئبة هكذا دائمًا لتغلق الباب أمام أحد يهتم بها أو يسألها عن سر هذا الصمت والحزن الذي يغلف روحها القلقة.

كان «طاهر» يتولى دائمًا الدفاع نيابة عنها وهو يرافقها ويخبر الأصدقاء أنها تفكر بينها وبين ذاتها، وأنها ستصير فيلسوفة. يميل بقامته القصيرة ويهمس لي «ولا يهمك يا ريتا أنا الوحيد اللي فهمك، نحن نشترك في برج واحد، اتركيهم يتكلمون دائمًا». وبكراهية للضوضاء التي تطغى على أفكارنا يلقي بقفشاته:

«ياعنـي اللـي اتكلموا عملوا إيه كل يوم بيصدعـوا دماغنا بالنضال لما ورمت خلاص».

تنفجر «ريتا» في الضحك وتناوبه القفشات: «قصرك ده مجرم».

تتباعـد الذكريـات بعيـدًا، ولكـن نعومتهـا لا تتباعـد، تخصها وحدهـا لكنها تسـتبدلها وقت الخطر بسـموم العقـارب، لا تحب أحـدًا أن يحـدق في وجهها كثيـرًا؛ حتى لا يخاف مـن هذه القدرة على الإختـراق، أو يلمح أصابع القدم المتشـدقة بالغرور والنافرة من الحياة والتي تلتصق لحظة التحديق فيها بالأرض، وهي تضغط فـي دأب عليها كي تسـتمر في المشـي طويلًا كالنمـل الأحمر ولا توقفها الحفـر العميقة. عيونها مثلها عصيّة على الفهم ضيقة لكنها تتسـع بحدة وتحدق في الفهم كي تستنطق عجزه، تتشكل شبكات حـول حدقـة عيونها العسـلية بلون ممـزوج من البيـاض الكريمي الـذي يشـبه لـون السـحاب الممـزوج باللـون الأزرق. أصابع يد متوسطة الطول يتشكل كل ظفر منها على هيئة دائرة، يسكن تحت كل إصبـع عرافـة تدعوك إلـى معانقتها وخطف قبلة سـريعة، وفي اللحظـة التي تهم بتلبية الدعوة تسـحبها برفق حذر فتترك الأصابع الممتدة لها وهي مبعثرة في الخيبة. ترقص السـمكات التي تختفي تحت نمشـها الكسـتنائي المحروق الذي يمتد على ذراعها فيطفو على الجلد شـعر ذهبي يوهـم العاشـق أن جلدها بحيرة تختبئ فيها سمكات الرغبة.

ذات ليلة كنت أرتدي جونلة سمراء حوافها من الدانتيل الشفاف تتناثر عليها مكعبات صغيرة بلون الثلج، يختبأ تحتها حذاء فضي اللون، قد أهدتني به صديقتي. إرتديته تحت الجونلة، وبينما كانت تجلس بجواري شعرت بخفة قدمي وكأني أمشي على الماء، نظرت إلى منبع هذه الخفة فوجدت قدمي عارية دون حذائها، لمعت دهشتي وغمرني الخرس، إقتربت هي مني أكثر ومالت بشعرها الكستنائي على رقبتي، وحاجباها الذهبيان يقتربان من أذني، وقبل أن تهمس لي ارتفعت ببطء في السماء، وظل جسدي يبتعد عنها ويطير. صرخت هي حينما شاهدتني أعلو وكأني ملاك صغير يستدعيه الرب، تفوهت بكلمات كثيرة لم يصل لي منها سوى صدى متقطع غير مفهوم. لم أكن قادرة على فهم كلماتها. تمادت هي في الصراخ وكنت أبتعد وهي تجري تحتي ولا تسأم من محاولاتها كي تطير مثلي، وتشد زيل جونلتي السمراء لتنتزعني فأعود إليها، صحوت من نومي مذعورة، وظل الحلم يلاحقني كظلي في منامي، إستسلمت للهلاوس التي غمرتني، وظلت «صديقتي» بطلة كل الأحلام.

أتذكرها لدرجة أشعر وكأن شيئًا ينزف بداخل قلبي، كلما كانت تتحرك به كان الدم يتدفق ولا يراه أحد، ما أصعب نوع هذا القتل؟!. تظل تنزف ببطء داخل ذاتك ولا أحد يرى سوى ابتسامة تحاول جاهدًا صناعتها لترتسم علي وجه حزين من طول

العذابات فقد الإحساس بالسعادة. وجهها يهاجمني في نومي لا أعرف لماذا...؟ حاولت جاهدة منذ اتخذت قرارًا بالقطيعة أن أمسح كل ما تمليه عليّ الذاكرة بالإكراه من ليالٍ.

هل من الممكن أن ننسى بسهولة ولا نتذكر أبدًا حتى البياض الذي كان بيننا...؟

وجهها يهاجمني في الشوارع التي أرى فيها فتيات يشبهنها، تتحرك الأرض بسرعة فائقة ولا تكف عن الدوران، وتظل المشاهد تتداعى عليّ.

حديقة الأورمان التي كنا نقف أمامها وتطل من أسوارها وردة بلدي بيضاء، نحاول خلسة قطفها قبل أن يرانا الحراس.

ساعة الجامعة التي تطل برأسها لتذكرنا أننا لا ننتمي للقاهرة، وأن علينا الرحيل عنها قبل المغيب لأن منطق القرى لا يشبه منطق المدينة. تنظر وجوهنا المتعبة إلى بعضها البعض، ونرحل بأسف وبكراهية لكل عقارب الساعات التي تتحرك على أرصفة المترو وفي الميادين العامة وفي صالات الجريدة. نكره كل ما يذكرنا بالرحيل عن المدينة، وأننا لم ولن نكن يوما جزءًا منها، لكنها تغيرت لم تعد تحب القرى. صارت تتأفف منها تريد أن تقتل ما فيها، لذا إبتعدت عن مزاجها وكرهت العقد التي تميزها، وأصبحت تضجر بـ «ريتا» لأنها صارت تذكرها بآلامها الأولى.

هـل مـن الممكن أن نسـكت الأصـوات التي تصـرخ فينا رغم الغيـاب، لماذا توقفت هي عن التذكر وإكتفت بمرافقته وهي تطلق إبتسـامة عاهرة، وتلقي السـلام على صديقة كانت تمشـي معي لم تجمعهـا بها يومًا أي رفقة سـوى أن اللحظة كانـت تحتم عليها أن تقـول لـي أمام سـينما التحرير وهـي تمر مـن أمامها: إنهـا لـم تعد تعترف بالذكريات.

حمـل رفيقها بوكيه الورد وأشـاح هو بوجهـه، وظلت هي تنظر ببجاحـة، ولـم تخفِ وجهها ولا ابتسـامتها عنـيّ، وكأنه يصر على الصـراخ في قلبـي أنها لـم تعد تهتـم بأمري، وأن لديهـا طاقة فائقة من النسـيان لكل من يرحل. عينها فقـط صرخت بجبروت وقالت جملة واحدة «فلتذهبي للجحيم».

«هي لا تشـبهك ولن تشـبهك يومًا» تقولها «سمر» وهي تلتقط منـي خيط الذاكـرة الثقيل، وتضغـط بأناملها غير المتناسـقة برفق: «حاولي جاهدة أن تكتبي الكتابة شفاء»..

ترحـل عنى إلى غربتها، وإلى بلاد تشـبه الكبريت وتترك كتفي باردًا وهو في حاجة ماسة إلى الحكي معها والشفاء بحديثها الذي يختصـر المسـافات بيننا فيحول الصحبة إلى أنس حقيقي، أعشـق كلماتهـا وهـي تودعني «هتوحشـيني يا قمر»، وأكـره نبرة الصوت الـذي تنطق به «أنثى العنكبـوت»، وهي تحـاول أن تقلدها فيغيب عن صوتها الدفء الذي يلتصق بـ«سمر».

الذكريات لن تنتهي إلى أبد الآبدين، هكذا يعلو صوت الماضي الذي يخترقنا مهما حاولنا جاهدين إخراسه.

تتذكر أفكارهما التي كانت تتألق كالقمر بالليل، تقول لها صديقتها «لا أحد يفكر مثلنا يا ريتا».

بانفعال أخبرها:

- خائفة من المستقبل أن يقسمنا كالغرباء فلا نعود لبعضنا يومًا ما.

تقلل من مخاوفي وبضحكة عالية تطمئنني:

- أبعدي عنكِ التشاؤم حتى تحلمي كل يوم حلمًا جميلًا.

ألتقط منها الحديث... «ولكن الزمن يتغير ونفوسنا تتغير معه وتلاحقنا أحداثه، وأنا أخاف أن نتغير ولا نعرف من نحن. تسكِت مخاوفي كعادتها:

- أبعدي بس الأسئلة الوجودية عنًّا ولن نتغير.

أودّعها في الهاتف، وتهفو نفسي إلى النوم فلا أنام. تنام هي ملئ راحتيها. في الصباح تراني في الجريدة وعيوني بها ليل السهر وهالات سوداء منتفخة تتراقص أسفلها، تضحك ضحكتها العالية الهاربة من وكر ليلي وتؤرقني:

- لـن تعرفـي للنـوم طعمًا على مـدار حياتك، أبراج السـرطان سـينفقون أعمارهـم في التكفير عـن ذنوبهم... كفري عن نفسـك بقى.

تعلـو ضحكتها الإنتقامية، وتتركها غارقة فـي كلماتها، دائمًا ما تغـرق «ريتا» ولا تعرف مخرجً، تتعثر في الكلمات، وتظل ردودها محبوسـة في سـجن بعيد، ولـم تكن في إستطاعتها إمتلاك المفتاح لتحريـر الكلمات بقـوة لترد عليها وتدفع عن ذاتهـا الأرق، تتركها كعادتها وهي تحسـم العبارات كـ» كسـينجر» يوم لخص فلسطين فـي إتفاقيـة منزوعـة الهوية؛ لتبعث فـي قلبها الحسـرة، ولا تعرف سوى التعثر في محبتها.

تنتهـي صديقتها من معاركها أولا بأول، تؤمن أن النظرة بالنظرة والعبـارة بالعبارة، والويل كل الويل لمن يقف في طريق سـعادتها ويفسـد عليها الخطط. تتمتع بذاك النفس الطويل الذي يميز «أنثى العنكبوت» وهي تحكم الخيوط حول الضحايا حتى إذا ما حاولت التمـرد تمتص من جسـدها الدماء وتتركها بلا فائـدة تذكر. تعرف «ريتـا» أنهـا صـارت ضحيتها المغفلـة حينما تركتها فـي بئر عميق وهـي علـى دراية كاملـة أن الصغيـرة لن تنجـح في الصعـود منه، إكتفت بالمشـاهدة وهـي تتخبط فـي تجربة عاطفية فاشـلة؛ لترى كيف يقع السرطان مهبولا في برج «الحوت»، تستمتع هي ورفيقها بالمشاهدة وراء جدار زجاجي، وتغرق «ريتا» في البئر الناعـم الذي

يمتد طوله إلى مدى لا ينتهي، وتبرر لنفسها الصمت أن علينا ألا ننصح لأن الآخر سعيد ولا يمكن أن نفسد سعادته بتعكير صفوها، لتستمر الفرجة أكبر وقت ممكن. اللحظة مهيأة تماما لـ «ريتا» أن تغرق.

اللحظة ساحرة لأنثى العنكبوت كي تنفذ الخطط وتترك مسافات كي تتفرغ للحب الذي يولد من الصداقة، ولابد أن تبتعد الصغيرة لأن وجودها يؤرق الغرام.

تحاول «ريتا» جاهدة مسح ملامحها فتتعثر دائمًا في وجهها النحيل البارز. شفاه مكتنزة وردية تميزها. تقول لنا: إنها خلصت العالم منذ وقت طويل، وإنها إختصرت المسافات والطرق والفهم بسرعة فائقة، وإن ما تبقى فيها مجرد مخرطتين مقلوبتين لم تعد توحي بشيء سوى إعترافًا قاتلًا. ألا ننتظر من العالم سوى نتائج فقط ومعادلات محسومة. تذم شفاها قاطبة. وهي غاضبة فيتقزم الكل أمامها ويصبح أصغر من أن يراه ميكروسكوب فضائي.

المعركة تبدأ حين تقرر ألا تستمر هذه الأخوة بينهما. المعركة تبدأ حينما ترى صديقتها أن «ريتا» أصبحت غريمة، تؤرقها لحظات المقارنة التي كان يعقدها مرارًا وتكرارًا رفيقها.

ولأن «ريتا» لا تحب أن تسقط في هذا الوحل اختارت لنفسها طريقًا منفردًا؛ لأنها آمنت أن الشرخ الذي يصيب الصداقة لا يقدر أحد على أن يرممه حين يتهاوى أمام الغيرة.

تتذكـر عيونهـا التي كانت تريد أن تبتلعهـا حينما تأخرت «ريتا» مـع رفيقهـا «بـدار الأوبرا»، كانـت تنتظرهمـا هنـاك. ليودعوا عام ميلاد جديد لصديق مشـترك. وقتها لم تـر في عيون صديقتها تلك المحبـة التي كانت تجعلهمـا ملتصقتين دائمًا، وقفت هناك منتظرة في تأهب. خانتها الكياسـة في تلك اللحظات، خانتها نظراتها التي حاولت إخفائها عن الجميع وهي تكذب على الناس وعلى نفسها أن مـا تشـعر به حب تجـاه صديقها، فقـط كانت تنتظـر ولون الدم يتدفق في وجهها وبعيون محتقنة تصرخ في وجهي:

«كل ده تأخيييير».

لأول مـرة ترى «ريتا» أن أخوتَهـم تذهب بعيدًا إلى غير رجعة. ولأول مرة تعرف سر هذه النحافة التي لا تفارقها. لقد أصبح هناك طرفـا يـؤرق الغرام. لقـد صارت «ريتـا» ضيفًا ثقيـلا، حينما قذف الحـب عطـوره أرادت التخلص منهـا بالتجاهل الـذي كان يقتلها ويدفعها للجنون، بل يجعل منها «أنثى شرسـة»، رسمت صديقتها خريطتهـا للبحـث عن منافـذ لدفع هذا الضيـف بعيـدًا؛ لأنه صار يرسم علامة خطر، وحدها «ريتا» هي التي قرأتها وظل أصدقاؤهم المشـتركون يقرءونهـا كالعميـان وهـي تسـكرهم باللغـة الناعمة وبالعسـل الـكاذب، تعريهـا رغـم كل محاولاتها لإخفـاء ما يطفو علـى وجهها كي يصبح كقطعة ثلج لا يرى أحد مشـاعره، وحدها «ريتا» هي التي تسـتطيع أن تراها جيـدًا رغم نعومتها، كانت تجعل الـكل ينظر لها على أنها طفلة لا تفهم شـيئًا حتـى تعطي لهم براحًا

فـي الحركة على طبيعتهـم، وترصد هي أرق نفوسـهم وعذاباتهم وجنونهـم بالعشـق، وباللغة اللولبيـة بينهم والتي تشـبه لف كرات الخيـط فـي كل الإتجاهـات حول الأسـطوانة البلاسـتيكية. كانت «ريتا» تسجن كل يوم بتلك الخيوط التي كانت تلف حول جسدها يوما بعد يوم، وهي تختنق ولا تجد مفرا للفكاك.

قبـل نهايـه قصتهمـا إنطفئت السـماء ولـم تعد تلمـع، ولـم تعد تغنـي مع الأصدقاء، لم تعد السـماء تسـتقبلهم كأخوة. لقد رفعت صديقتها صوتها للسـماء وهي تصرخ لهـا «وجهها علامة عذابي، أغـار مـن براءتهـا. حتـى وجههـا الذي يبتسـم بـدون حـذر صار يؤرقنـي، تضحـك في وجه الجميـع وكأنها قديسـة كل من حولها طيبـون وأخـوة.... كيف تفهم تلـك الصغيرة أنـي أكرهها؟ أحب تعثرهـا فقـط وخيباتها التي تحملها إلي في كل مـرة، طفولتها التي تحملها وتوزعها على خلق الله دون تمييز بين عدو وحبيب، كيف لهذه الغبية أن تبتعد وترحل إلى غير رجعة، أكره كعبها الذي يدب في الطرقات، وحضورها الذي يستقبلها، رفيقي بإنتظار وهو يبعث لي كل يوم الحسـرة، وهو يسـأل عنها في تلهـف.... هل حضرت طفلتنـا لأسـلم عليها....؟ أكـره يا ربي تلك اللوحـات التي تحبها وتلك الدهشـة التي تسـبح فيها وكأنها ملاك صغيـر. أكره كل هذا الولع الذي يملىء روحها وهي لا تكف عن التجريب لتلقي بنفسها في العذابات، وتستشـهد فـي التجارب وتخرج وهـي لا تتعلم بل تكـرر الأخطـاء بغباء. أكـره ضجرها الـذي يدفعنا للجنون سـويًّا،

وهذه الرأفة التي يحملها رفيقي لها وهو يشفق عليها... أكره عشقه وحبه للطفولـة. بل يصيبني الغثيان وهو يواسيني، ويحاول تهدئة غليانـي الداخلي: «إنها طفلتنا سنظل نهتم بهـا للأبد لأن الأطفال أحباب الله».

تقـرأ «ريتا» كل تلك الأوجاع في عيـون صديقتها. فترحل عنها تقول لنفسها تكفيني تلك الشيخوخة التي منحتها لي. تغيب عنها وتختفي الدهشـة والبـراءات الأولى. تجـرب آلام النضج وتعانق النحافة، لم تعد «ريتا» حبيبة الله لقد صارت حبيبة المشـي بشـكل ممتد كي تنسى.

تمشـي في تلك الأماكن التي كانوا يولعون بها هم الثلاثة، وفي حديقـة كانـت مقصدهم تتوقف تحمل كاميرا فـي يدها لتصور بها الأشـجار. تقول للأوراق: «لقد كان عندي أصدقاء يشـبهونك في خضـار أرواحهم، أمشـي معهم فتصعد روحي للسـماء، يتسـاقط المطـر علينـا فنصرخ بنشـوة ونغني معـه: «نموت نمـوت وتحيى الصداقة».

تتوارى الشـمس بعيدًا ويتسـلل الغروب فيمـلأ الأفق، تنكمش الورقـة الخضـراء وتذبل، يهطـل المطر بغـزارة، وتختبـئ الورود بالداخل، وأحمل حقيبتي بعيدًا عن الحديقة والبرد يلفني، وقصائد «سـعدي يوسف» تمنحني الصبر.. «الرايات خافقة تحت سماء لم تتكـون بعـد، أما نحـن المنظـورون لنحملها تحـت الريح وتحت المطر، فعلينا أن نتكون أيضًا.....

الفصل الثاني

داخل الميدان نهرب!!

أفتح عيوني لأول مرة وأرى الأرض قد تغيرت خريطتها، وكأني لم أراها قبل هذا اليوم، ألتصق بها وتغمرني رائحة المسك في كل الشوارع. كل الأشياء التي تلتصق بالأرض تتكلم وكأنها تنطق بالسحر. تتماوج أوراق الشجر فتهز في قلبي حزن الخريف.

تمشي «ريتا» وكأن العذابات قد رحلت كدب يستيقظ من نومه ويشم رائحة البرد ويكمل الرحلة ليس مهموما ببرودة الجو. بل لديه حنين في البحث عن أمل كي يبدل الطقس إلى دافئ، وعلى الرغم من تأكده من عدم تبدل المواسم، كانت لديها يقين أنها ستتبدل يومًا. كانت تعرف أن البرودة لن تستمر، تفتح ذراعيها إلى الحياة وتصير مغرمة بالأشياء التي لا يلتصق بها الواقعيون. تعود إلى مجرَّتها الحالمة وتعرف أن الأمل طريق المختلفين، وأن غيابه يجعلنا لا نرى جيدًا، بل يعمدنا في الدوائر، وحده الفهم هو من يجعل الماضي في قلبي ينام. بل يتمدد كثعبان يهوى الحفر

في الصحراء، لماذا نختار طرقًا متعرجة ونظل ننزف منها وأمامنا الطريق المهذب ونتجاهله..؟

هكذا تساءلت «ريتا» بعد سنوات وهي تسلك طريقًا متعرجا ليس له ملامح.

لماذا نصادق أشخاصًا لا يشبهوننا ولا نكتشف يومًا أننا لن نلتقي وأن طريقنا لا يشبه طرقهم، ولماذا لا نرعى الحب كي يكبر مع من يعطينا الماء كي يرتوي؟ لماذا تظل أرواحنا بعيدة مع أناس وتلتصق بنا مع بشر آخرين لهم نبل خاص مميز..؟

لماذا ظلت كل هذه الأعوام تنزف وترتجف وحدها وتمشي مع من أضاعوا روحها البكر؟ وما العيب في اختيار بدايات جديدة تمسح كل تشوه علق بنا يومًا؟...

هكذا خيّرت «ريتا» نفسها ما بين الذكريات المثقلة الحزينة الفرحة، وبين طريق مجهول غير مثقل بالماضي الكئيب. إختارته كي ترى جيدًا بعيدًا عن الكل. لأن العين حبيسة المحبوب، كما أنها لا تتصور يومًا أن تترك كل هذا ورائها وتلتقط بداية جديدة حتى ولو كانت في مكان تربى على الشوائب النتنة. تسقط عيناها على حكمة ت.س.إليوت: «كل هول بالإمكان تحديده. كل حزن يعرف بشكل ما نهايةً في الحياة، لا وقت لتكريس الأحزان الطويلة».

لـذا قررت «ريتا» ألا تكرس الأحزان طويلًا وهي ترحل.. لا بد أن نبتعد ونحن نشعر أن أرواحنا تسرق بعيدًا في غابة مظلمة. هكذا قالت لنفسـها «سـرقة الأرواح إجرام نادر». تعرف أنها سقطت في هـذه الندرة لكنها الآن ترى جيدًا وتنبت الأكتاف ظلا جديدًا غاب منذ وفاة أبيها. تتذكر وحدته تحت عروش أوراق العنب فوق سطح بيتها وهو معذب بحب الإله، يناجي كما الزاهد المهذب الخلوق: «يا ربى سـأترك لك أولادي في رعاية من لا تضيع ودائعه». ينزف الدماء من فمه وتصرخ الجدة بيننا: «لا تتركنا ياااااايوسف»، تصلي «زهـوة» على سـجادة زوجها وتناجـي الرب مثله: «يـا رب اقبض روحه كي يرتاح».

«ريتـا» تتلصص السـمع بين الأعمدة وتلمع كـروب العنب في عينيهـا بعدمـا تختلط بشـعاع نور الشـمس. تتسـاقط الدموع برفق ولأنهـا صغيرة لا تتجاوز السادسـة من عمرهـا تختبئ كي لا يراها ملاك الموت. هكذا كانت تحتال عليها أمها حينذاك والزوج ينزف كي لا يقترب أطفالها فيتبولون في الفراش ليلًا من مشهد الدماء.

تختلط الدماء برائحة المضادات الحيوية فتحول غرفة أبيها إلى حـزن معتق برائحة المـوت. يحمله العم على كتفـه وزغب مضاد حيـوي يطفـو على جوانـب فمه، لم يعـد يصلح لتسـكين الوجع، ينصحـه الأطباء بالعودة إلى منزله وعدم منع الطعام عنه لحين لفظ أنفاسه الأخيرة.

ينام «يوسف» على سرير «زهوة» وينظر إلى نطفه التي تكاثرت وصارت أشبالا صغيرة يودعها بعيون حزينة وبتوكل على الرب أنه الحامي، وصراخ الصغار يعلو ويمزق زيل جلباب «زهوة» القرمزي والجد يسحلهم بعيدًا عن غرفته ويغلق الأبواب عليهما ويرتفع صوت الأب الجهوري وهو ينطق الشهادتين فتسكن الأنفاس لربها طاهرة.

ويندفع برد قارس لجسد «ريتا» وتدخل في غيبوبة ويصمت لسانها عن الكلام ولا تستطيع التعبير بالبكاء، تظل «زهوة» تدفعها للصراخ،ولكنها تتسمر تتحول إلى تمثال يوناني لا تكف عيونه عن النظر في اتجاه واحد.

تنام بعيدًا عن سرير أبيها بعد أن يحملها «عمار» الذي يكبرها بأعوام في ساعات الفجر الأولى لتنام في بيت الجدة بعيدًا عن البرد الذي يسكن البيت. تنام «ريتا» بعد ذهول ممتد وتستيقظ فزعة على صوت الشيخ وهو ينادي على أبيها فلا تكف الأرض عن الدوران ولا تكف «ريتا» عن الشعور بالبرد.

تنفض الماضي عن جسدها وترتدي ثوبًا سماويًّا تقلب «ريموت» التلفزيون قبل لحاقها بالجريدة وتشاهد لقطات خاطفة على قناة الجزيرة «مصر على مشارف ثورة ثانية»، تبتهج وتصفق بيديها وتصرخ في جنون «يسقط يسقط حكم العسكر»، «هؤلاء لا يموتون كي يكون المشير رئيسًا».

نفس الهتاف الذي كانت تصرخ به في ميدان التحرير وهي ترى مصر شيخًا عجوزًا تحول فجأة إلى شباب «زليخة» ويد يوسف تسحب عن وجهها الحجاب فتنظر إلى المرآة، وهي لا تصدق أن الشباب من الممكن أن يعود يومًا بعدما إكتنزت العظام وإنتحلت وشارفت على التحلل. هل من الممكن أن تعود الحياة إلى جسد ميت؟ هكذا كان يصرخ ميدان التحرير وهو يفجر بداخلها الوجع وينهرها أنه لا وقت للخوف، لا وقت للتساؤل، لا وقت إلا للموت. الموت وفقط... هتاف الثوار يعلو في السماء فيكسر صمت السنين ويحول قلب «ريتا» إلى بركان لا تكف حممه عن التدافع بقسوة. يلتحم جسدها بأجساد الثوار، تشم رائحة العرق الشقيان والذي يتساقط منهم مع تدفق الدماء في شارع «طلعت حرب» فيحول ذكرياتها به إلى مشهد دامٍ يمحي كل مشاهدها مع «آثر»، وهو يتأبط ذراعها ويتوقف أمام مكتبة «الشروق» فجأة وينظر إلى عينيها بحب وعيونه تسافر في لونها العسلي وهو يصرخ كالأطفال «دي عيون حواء قبل نزولها من الجنة»، تطلق شهقة عالية وتصيح: «أنت أكيد مجنون أنا ريتا»، يصر على التسمر أمام عيونها حين تنعكس الشمس عليها فتحول دوائر البياض إلى مجرّة لامعه، يعشق «آثر» هذا التحول، وبلطف يخبرها أنه عاشق لعيونها الغجرية ويتمنى لو كان مثل «بيكاسو» قادرًا على رسم تلك اللحظة النادرة، وعيونها تتراجع في حذر للداخل وتكتسي بالخجل وهو يغازلها.

تختفي الذكريات بعيدًا والغازات السامة تنطلق فتمحو تلك اللمعة التي ميزتها وتحولها إلى عيون خافتة تغيب عن الوعي لدقائق وتستيقظ على سارينة سيارات الإسعاف وهي تجري في الميدان بجنون بحثًا عن الضحايا.

يحملها أصدقاؤها إلى قهوة «زهرة البستان» ورائحة البصل تستفزها حتى لا تغيب عن الوعي كثيرًا، فالميدان يصرخ ولا بد أن تلبي صراخه. لا تعرف «ريتا» كيف أصبحت هكذا، هل أحبت النضال من أجل «آثر» أم من أجل الدكتور «ضياء» الذي شجعها أن تكون عضوا في حركة «حرية» لماذا تختلط ملامحهما ولا تستطيع التمييز بينهما..؟

وهي تذرع الغيرة في قلبه حينما تتذكره، وهو يضرب على سلم «نقابة الصحفيين» ويهتف ضد النظام السياسي ويصفه بـ «الفاسد» فيختل إتزانه وهو في طريقه للسقوط على الأرض يحمله تلاميذه على أكتافهم وهم يحمونه من هراوات الأمن المركزي التي لم ترحم شيخوخته وهي تسقط على رءوس المتظاهرين فتفتتها؟ لماذا ظل «آثر» يغير منه حتى بعد وفاته؟ ولماذا يندم أنه عرّفها عليه يومًا عند أول مشاركة لها بمسيرة غاضبة للحركة بإتجاه قصر الرئاسة قبل أن تحاصرهم قوات الأمن المركزي عند شارع «الميرغني» فتحول مسيرتهم عند هجوم قوات الأمن إلى معركة كروفر.

نجـا منها الدكتـور» ضياء» حين نجح الشـباب فـي الهروب به إلى شارع ضيق وحملوه عند إرتباكه من بغته الهجوم ووقع عكازة فـي الشـارع. حينها صرخت لتنبه الشـباب أنه على وشـك الوقوع في قبض الآمن. فتكاتف حوله الشـباب وشـكلوا حوله سياجا من الحمايـة، ولـم تجد نفسـها قادرة علـى آى مهمة غيـر الهروب من نفس الشـارع والبحث عن سـوبر ماركت لشـراء الخل لإنقاذه من ضيق التنفس الذي سببه الغاز.هنا وجدت المفكر» العجوز» يحتل مكانـه من الإبهـار فاقـت إعجابها ب"آثـر». وجدت فـي معلمها البطولـة الغائبـة عـن قلـوب شـيوخ الحـزب الوطنى البليـد وهـم ينشرون أفكارهم كورم سرطانى خبيث سبب عقما للتفكير الحر.

تدافع السـخط على العسـاكر وظل «آثر» يصفهـم بـ «الأغبياء» معدومـى التفكيـر الفقـراء اللذيـن تسـتدعيهم الداخليـة كفئـران تجارب من أحراش الصعيد الفقير لترميهم في المواجهة.

رشـف الدكتور «ضياء» كوب الماء وإسـتعاد توازنه، وقال لهم «مسـاكين» نحـن لسـنا فـي مواجهتهم هـم ضحايا نظـام «مبارك» البليد هم أبناءنا ليسـوا أعداء نحن لا نواجههم بل نحتج ضد نظام ديكتاتورى.

تدافع الغضب من الشـباب وفقد أحدهـم السـيطرة على نفسـه وهاجـم الدكتور «ضيـاء»: يادكتور الإنسـانية العالميـة مش طالبه المـرة دى لأننـا مفقوعيـن. نظر له بحـب وقبل أن يعنفـه أصدقائه علـى لهجتـه الحادة هدائهم وقـال له عندمـا يواجهكونكم بالعصا

واجهوهم بالشعر مثلما واجهه زين العابدين فؤاد. غنوا في وجوههم: »

أحنا أخواتكوا

إحنا ولادكوا

واللى بنعمله ده علشانكوا

إحنا النفس الطالع منكو

إحنا الصدر الحاضن طيركوا

إحنا إخواتكوا

إحنا ولادكوا

واللى بنعمله دا علشانكوا. تنتهى أغنية الولادة وهو يقول:

«أنتم المستقبل راهنوا على سقوط هذا النظام وستتحقق النبوءة يوما ما أنا أؤمن بذلك مثلما أؤمن بربى».

كانت تنفجر الأسئلة بقوة مع «آثر» حول المصير الذي إتخذه الدكتور «ضياء» لنفسه مع أنه بورجوازى وكان في إمكانه أن يعيش ملكا متوجا في أمريكا دون حاجة لوجع رأس السياسة وأمراضها التي جعلته يشيخ قبل الأوان..فصدمها رد «آثر» هو أنت بتحبينى ولا بتحبى الدكتور «ضياء».

فجأة إستبدل «آثر» عقلية المثقف المناضل بالذكورية الوقحة وهو يمزق قلبي دون أي إحساس بالذنب ويسخر مني وهو يواجهني:

- «هل أحببتِ الدكتور (ضياء)؟ ولماذا يغريكِ الشيب ولا يغريكِ شبابي»؟

إختنقت أنفاسي بالبكاء وعلى شهيقي....إنت حيوان».

ضغط على مشاعري وواصل إستفزازه:

- «فهميني لما تحبين الشيب؟ لماذا دائمًا تبحثين عن حبيبٍ في صورة أبٍ...؟!».

تصلبت عيوني ولم تعد قادرة على البكاء، وإرتفعت يدي لتسقط بقسوة على خده الأيمن، وتدافعت الدموع من عيني وغمرت وجهي وإختنق صوتي وتقطع: «لماذاااا تس تف ز ني مشاعري؟». لم يجد «آثر» نفسه سوى أنه سقط في حفرة عميقة من حفر الرجل الشرقي بكل تناقضاته فبكي مثلي ودفعني بين أحضانه بقوة وأحاطني بذراعيه وهمس في أذني «أنا بأغير عليكِ من نفسي».

أين «آثر» اليوم؟ وأين الدكتور «ضياء» ؟ لماذا كُتب عليَّ أن أحيا وأتعذب بالفقد؟ لقد صار الوطن مثقلا بالوجع، وصار قلبي مثله يتأفف من شوارعه الملوثة وطعامه المليء بالفيروسات، ولا تغادر عيني صورُ الضحايا. «أين أنت يا ريتا»..؟

لماذا يسكنك الأرق لدرجة يكون فيها قادرًا على أن يمزقك ألف قطعة من الداخل..،هل صرت ممزقة إلى هذا الحد..أم أن الوطن هوالذي تمزق ؟؟ ولماذا تحاولين في أرض فقدت كل مقومات الحياة؟

لماذا لا تهربين مثل أخيك «عمار» وهو يلعن ويسب في كل حشرة يراها تمشي على أرض الوطن ويودعك بعيون منكسرة: «هذه البلاد لم تعد صالحة للعيش يا حبيبتي أهربي كي تكوني قادرة على التنفس». يحتضنني بقوة وقبل أن يرحل يكتب لي وصية «لتكن أمي أمانة في رقبتك يا ريتا».

إختنق وهو يودعني، ويضغط البرد على جسدي من جديد. أجري كالمجنونة بحثًا عن مهرب تحملني قدماي إلى الميدان يصرخ الثوار «ثورتنا سرقوها..... مش هنرحل مش هنطاطي».

يرتفع صراخي معهم «لقد غاب ظلي». تهز النداءات الميدان ولا أحد يتحرك لوقف السرقة. يبدو أن السماء لم تعد تسمعنا لقد صارت تسمع غيرنا لسنوات. يبدو أننا سنموت ونحن نحلم فقط.

يهاجمني «طاهر» في هذه اللحظات بملابسه الممزقة وبخصلات شعر غير مهذبة وبنحافة تشبه نحافة غاندي وبعناد جيفارا يخبرني، وهو يحملني بعد دوار أطاح برأسي من إنبعاث الأسئلة بيني وبين ذاتي...

- الكبـار هم من يقررون ونحن ليس لدينا سـوى الميدان تلك هي الحقيقة يا ريتا لا تحاولين...

بهذا السـأم يذرع «طاهر» في قلبي الحسرة، يزم شفتيه للداخل، وتلمع عيونه السمراء في حزن.

- «نحن نضحك على أنفسنا».

تتسـع حدقة عينـي وتمتد خيـوط عنكبوتية حمـراء تطغى على بياضهـا الداخلي،وهي تحـاول قتل كلماتـه: «فلنموت كي تتنفس الأجيال من بعدنا» يصرخ:

لدينـا فقط شـعارات، هم من ينفذون، لقد صرنـا خارج اللعبة، نحـن دائمًا خارج اللعبة، هـذه الحقيقة التي نريد أن نهرب منها في الميدان.

أعقد معصمي حول أذني كي لا يتسـرب إليّ إحباطه المنبعث. يفـك يدي بقـوة ويهزني فترتجف كل أعضائـي: لماذا لا تواجهين نفسـك مثلمـا أواجهها؟ أنـت تهربين مثلـي في الميـدان بحثًا عن «آثـر». أدفعـه فـي صـدره وأنا أحـاول التخلـص من شـركه «أنت شخص مهزوم وتريد أن تهزمني مثلك تمامًا».

الفصل الثالث

في الجريدة.. ورق دشت

أصعد سلالم الجريدة التي لا أحب العمل بها، ولكني إضطررت إلى ذلك، فخضعتُ لحكم الضرورة والتحقتُ بها. لا يهتم رئيس التحرير بما أكتب فقط يهتم حين لا أكتب. كذلك كشوف الحضور تحمل دائمًا خانات فارغة تبعث في قلبه السأم، يخبر القيادات أني أدفعه للجنون. لأنني دائمًا ما أمر بها مرور الكرام كضيف يرحل آخر اليوم، ويذهب لينام ويعود أيضًا كي يرحل مرة أخرى، وللحقيقة كان محقًا في ذلك.

أجلس دائمًا في ركن بعيد يفصلني عن زملائي، أضحك على صورهم وهم ينهمكون في عملهم وأكلم نفسي: «كلكم أغبياء وأنا مثلكم تمامًا». ينهمر «طاهر» في الضحك وهو يرى نظراتي المتأففة من الجميع، والتي تبدو سهامًا لا يراها سواه. يراقبني من بعيد وهو يعرف أنني أضحك عليه، بل يردد لذاته: «أموت وأعرف سر هذه النظرة كلما تطلعت عيونها في وجهي».

يتناثر ورق الدشت أمامنا نحن الفقراء. وجوه متعبة من التفكير المهلك في مستقبلنا الذي يلتهمه الكبار ولا يتركون لنا سوى القليل بما لا يكفي حق وجبتين دسمتين من كنتاكي.أوزع نظرات الشفقة على زملائي وعلى نفسي الآسفة على حالها وأغني:

«الغد لنا»...

في الحقيقة كنا نحب أنا وأصدقائي ترديد تلك الأغنية كلما لفنا الإحباط الذي كان لا يلبث أن يغادرنا حتى يعود في اليوم الذي نكون قد أيقنا أننا تخلصنا منه. كلنا نتحول في الصباح إلى آلات تلهث طول اليوم للبحث عن خبر، وأجسادنا تختلط برائحة عرق الشارع، وتصبح ملابسنا متسخة بها رائحة الضجر، ولونها يتحول آخر اليوم للون الرصيف القاتم. يقف موظفوا الدولة في حلقات دائرية على طول الرصيف ويهتفون في صوت واحد «عايزين حقوقنا»، «شفطوا الملايين..إحنا مش لاقيين ملاليم».

يستقبلوننا بفرحة كبيرة ونحن نقترب منهم. صاروا يتعرفون علينا من بعيد وحينما نقترب أنا والمصور يتأكد حدسهم. صحفية بملابس متسخة مثلهم أشبه بلون الرصيف تحت عيونها هالات سوداء وجيوب مائية تحيط بأسفل جفنها.يعرفون أننى من أغطى ملف العمال

تسألني الأصوات الجائعة:» إتأخرتي ليه يا أستاذة؟».

أطأطأ رأسي بما يشبه الإعتذار غير المعلن، وألتقط أنفاسي المتقطعة وبصوت مرهق أعتذر:

- أنا آسفة الإحتجاجات شافطة البلد ومعطلة المرور.

يلتقطونني بينهم وكل الأذرع تحاول جذبي لها، يتحدثون بإندفاع «الثورة أسقطت الرؤوس ولكن الأساس الذي يحمل الرأس الفاسدة ما زال موجودًا. الحكومة في وادٍ ونحن في وادٍ آخر، أجسادنا نشفت من البرد على الرصيف ولا أحد يستجيب».

يواجهونني بقوة:

بـ «الذمة يا أستاذة تقدري تعيشي بـ500 جنيه.....؟

أهز رأسي يمينا ويسارًا دليلًا على الرفض وذاتي تهمس:

«أحاول العيش به، لدينا رواتب معقولة يلتهمها دائمًا رئيس التحرير».

ينتزعونني من ذاتي بأصواتهم المندفعة:

«رئيس الهيئة يعطي لمستشار واحد راتب يكفي لإطعام أطفالنا جميعًا، هل هذا عدل؟!

أطمئنهم: رئيس الوزراء وعد في مؤتمر صحفي له أمس أنه سيخفض رواتب المستشارين لتصبح 30 ألف جنيه كحد أقصى و1200 كحد أدنى وكذال...

يقاطع حديثي متظاهر منهم وهو يشيح بيده في وجهي: «كذب كل ده كذب»، ويواصل «لنفترض أن هذا سيحدث فكيف لي

كموظف لا يتحصل على 500 جنيه أن يتحمل سماع رقم 30 ألفًا كحد أقصى وكأنك تريدين لنا أن نستبدل مرارتنا بمرارة أخرى، لم نكن نتوقع منك هذا يا أستاذة، أنت منا ورئيس تحريركم هو من شجعنا على الثورة بعناوين مانشيتاته.

أحاول تهدئته: هذا ليس كلامي هذا كلام رئيس الوزراء.

يشفق المعتصمون على محاولتي الدفاع عن النفس، ويعتذرون لي على ما بدر من زميلهم: «إحنا آسفين».

- حصل خير، بكرة إن شاء الله سأحضر لكم منذ الصباح الباكر لمتابعة تغطية الإعتصام.

يلوحون بأيديهم فرحين: «ربنا يخليلنا الصحافة المستقلة».

أودعهم ويبدأ حديث النفس الذي أكرهه:

الإحتجاجات الفئوية تملأ الشارع ونحن لسنا قادرين على الإحتجاج ضد رئيس التحرير!!

كلما علت أصواتنا ونحن نطالب بزيادة الرواتب كان يجعل كل واحد منا شبلا صغيرا من أشبال «جيفارا».

قال لنا ذات مرة في صالة التحرير حين شعر بحركة تمرد أراد وئدها بعدما نقل له عصافيره نيتنا في الإمتناع عن العمل وتعطيل العدد اليومي: «الأبطال لا يطالبون بزيادة رواتبهم الأبطال يعطون من جيبهم لخدمة القضية».

قلت له: ولكننا كومبارس لا يرانا أحد،الكل يراك أنت فقط. تطغى على صورتنا فتتحول لمسخ مكرر فاقد للنكهة.

شد الحمالات التي كان يرتديها والتى كانت تميزه كلمبى متفرد بقوة فتلسع صدره وضحك ضحكة السادات و لوك فمه مثله تمامًا فبرز شنبه الأسمر الكثيف ورد بسخرية قاتلة:

- يا أولادي ينقصكم الإبدّاع، الوقت لديكم طويل جدًا.

هل لابد أن نصل إلى الخمسين حتى تتحقق أحلامنا؟

- لا أعتقد أن العمر سيمتد بكم طالما تفكرون بهذه الطريقة، الرسول كان...

نقاطعه في صوت واحد «عليه الصلاة والسلام»، نرجوك لا تقحم سيرته العطرة في قضيتنا الآن. يضحك بإستهزاء:

- الرسول ظل سنوات حتى انتشرت دعوته، فلماذا تتعجلون على الإنتشار، يلزمكم الوقت الكافي.

يميل «طاهر» على رأسي وأرنبة أنفه رفيعة الطول تتراقص وتهمس لي: «ده قلب مكتب إرشاد».

أكتم ضحكة هاربة من كلماته وأسخر مثله: «يحيا.. يحيا.. المناضل لومومبو».

نعود بالخيبة التي دائمًا ما نعود بها إلى مكاتبنا، ونتآمر جميعًا على مكتب طويل ممتد يسعنا جميعًا،ونحن نحضر لحركة تمرد

ثانية ينجح هو كل مرة في وأدها بتثبيت الزعماء من شباب الجريدة وتسكينهم بزيادة رواتبهم ويترك الصغارغارقون في التبعية.

يملئني السأم من المحاولات، لكن زملائي لا يكفرن عن تزعم دور البطولات، يبدءون هم في إصدار البيانات تلو الأخرى والتي ـس على مطالبنا والتي يكون مد ـا في الغالب أدراج مكاتبنا.

أسند رأسـي على الحائط الذي يغطي ظهري، وأبدأ لوم النفس «لماذا جئت إلى هنا..؟ هذه الأرض لا تشبه أرضى، وتلك الوجوه المندفعـة الباحثـة عن بطولة لا تشـبه تلـك الوجوه التـي أراها في قريتي، أحن إلى الحقول الخضراء في شـارعي والتي تتراص على جانبيـه فتزرع في قلبـي الطمأنينة، لماذا لا أرى هـذا الخضار هنا؟ لمـاذا صار وجهي شـائخًا هكذا؟ وإلى متى سـأرضى بهذا الغيم؟ أتطلع إلى السـقف ورأسـي مشـدود إلى أعلاه، أرسـم دائرة على النشع الذي يسبح فيه، وبريشة خيالي أرسم وجه «آثر» بداخلها.

أرسـم عيونـه التي تشـبه عيـون أبـى مكتحلة، ينسـحب جانبها العلوي بإنسـياب موجة هادئة على الشـط، تسرق ولهك إلى أعلى وتحديـدًا في تلك الحسـنة التي تقف سـاكنة أعلى عينه اليسـرى، يفصـل بين حاجبيـه الكثيفين والتي تتجاورعلى شـكل مثلث خط غائر يدل على شـقاوة طفولة عنيدة جعلته يرتكب حادثًا في نفسه، أنف بارز طالما كان سببًا في شجارنا نحن الإثنين لشيمة لديه كانت تجعله يكره النظر أو التطلع فيها كثيرًا حتى لا يتفرس أحد خجله.

تنساب على وجهه الخمري حمرة تغطيه كلما تطلع أحد في أنفه الذي تشبه أنف بدوي رحالة، يرفع حاجبه الأيسر وقت الغضب فتسكن الحدقة السوداء في عينيه وكأنك ترى صقرًا ينقض لإلتهامك، كنت دائمًا ما أحب أن يلتهمني بهما حين يرى ابتسامتي وهو يصرخ في نشوة:

«ابتسامتك تشبه حواء قبل نزولها من الجنة».

أضحك بسخرية:

«ولكني نزلت من بطن أمي».

يذم شفتيه غاضبًا:

- «لماذا تفسدين دائمًا الغزل يا صغيرتي؟».

ينتزعني «كمال» من وجه «آثر»، وهو يقحم ذاته في ذاكرتي: «لو سمحتي وقّعي على هذا البيان، لن ينجح في هزيمتنا هذا المدعي ولن نتركه يقفز على رؤسنا دون أن نوجعه»..أتطلع إليه وأنا أريد أن أقتله وقبل أن أهاجمه: ياكذابين ياولاد القحبة بطلوا بقى متاجرة بينا.

تقف في ذاكرتى صورة «أمي» فأجمل سخطى وأواجهه:

«مللت هل تحتاج مني أن يعلو صوتي كي تعي لأي درجة مللت؟

يرد بإستفزاز:

«أنـتِ مـا زالـتِ صغيـرة لا تفهمين شـيئًا، هـو يتقن معنـا لعبة «دوخيني يـا لمونـة» حتى نصـل إلى الإحبـاط الذي نجـح في أن تسـبحـ فيـه طويلا، لكننا جميعًـا لابد أن نتقن مثله نفس السـلاح الذي يهاجمنا به.

وبحركـة عصبيـة يغرز باقـي السـيجارة المشـتعلة بأصابعه في طفايـة سـاكنة أمامي علـى الطاولـة، وشـفتاه الداكنـة تقبض على بعضهـا البعـض، وينفـس فـي وجوهنا دخانـه المكتـوم بغل،وهو يؤكـد لنا أنه يخطـط لخصخصتنـا جميعًا مثلما خصخـص النظامُ شـركاتِ القطاع العام، أضحك من كلماته وأقاطعه: يبدو أن ملف العمال الذي أغطيه معك حوّل جمجمة رأسـك إلى مؤامرة إسمها «الخصخصة».

يرد بقسوة:

«سـتثبت لـكِ الأيـام يـا ريتا صـدق كلامـي، هناك صفقـة لبيع جريدتنـا لرجل أعمال سـيحولنا جميعًا إلى أقـلام ناطقة للتمجيد فـي الحزب الذي ينتمي لـه، صفقة قبض عمولتهـا رئيس تحريرنا المناضل، حين سـنعترض سـيكون مصيرنا رصيف الشـارع الذي تغطين منه الإعتصامات، ستصبحين بطلة لكن على الرصيف».

يزداد جموح «كمال» وهو يضرب بقبضة يده على الطاولة:

«لكنهم سيحاولون شراء الكثير منا حتى نظل في الجريدة بعدما تتغير سياستها التحريرية»، «أقْسِمُوا معي على ميثاق شرف صحفي

يجعلنـا جميعًا كتلة واحدة لا تهزها العطاءات التي سـيقدمونها لنا مهما لمعت أمام أعيننا وأغرتنا».

نلتف حول «كمال» جميعًا ونحيطه من كل جوانبه ويدنا تتراص فوق بعضها لنكون هرمًا عاليًا. ونحن نعاهده: «نقسـم بالله العظيم ألا تغرينا العطاءات مهما صغرت أو كبرت».

ينـزع «كمـال» يـده بعد القسـم ويتراجـع للخلـف وأصابع يده تتخلل خصلات شـعره المتعرج، وكأنه طائر ينفض بجناحيه ريشه المبلـل، يهدأ إنفعاله، تسـتكين البطولـة به وتشـعر بالرضا، ينتهي التمرد الثاني ويعود كل منا إلى عمله.

بيـدي ألتقـط قلم رصاص مسـنون بعناية وورق الدشـت يتناثر حولـي فأكومـه أمامي وأرتبه بيدي وأسـطر بسـخرية بضع كلمات على إحدى أوراقه لأكتب مقال يؤرخ لعجزنا،وأضعه تحت عنوان «شرف المهنة وبضاعة الأحبار».

يحـاول زميـل لـي التطفل علـى كلماتـي؛ فأمزق الورقـة بيدي وأغني كلمات لعبد الحليم حافظ

«بحلم... بحلم... بحلم، ياريت ياريت أحلامي تبقى حقيقة».

ينتهـي دوام عملـي، أحمـل حقيبتـي وأودع الجريـدة، وعلـى كوبري عباس أهوى المشـي الممتد وكلمـات عبد الحليم تخفف عنـي الضجـر وتمنح قلبي أن يكتشـف روحه التـي تغرد كعصفور صغير يبتهج لنسمات البكور، تلفحني نسمات تتطاير من كورنيش

النيل تجبرني على الوقوف لإرسال قبلة لأمواجه وهو يضحك بغمزاته التي تلمع في الغروب، فيقذف في قلبي الطمأنينة التي غابت عني طوال اليوم، وصوتي يدندن مع عبد الحليم «بحلم بيوم أشوف الشفايف تتكلم كلام فيه حب.. أحلم بيوم عينيا تشوف فرحة قلوب الصابرين..أشوف الحيارى في طريق الأمل ماشيين.. وأشوف اللي هاجر راجع هنا لمكانه..أشوف اللي يائس جفف دموع أحزانه..بحلم بيوم الدنيا نور على كل البشر..وأشوف سما ما يغبش يوم عنها قمر».

يغمرني الفرح كسحابة سرعان ما تتلاشى وكأني طائر ممزق الأجنحة يحلم في موته دائمًا أنه قادر على الطيران، أنا طائر ممزق من الداخل. قلبي حزين كلون الغراب، أحمل ثقلي معي في كل طريق، أعشق هذه الصلابة التي تحيطني بهالة كبيرة من الخارج وكل العيون تصاب بالوله من قسوتي.

وحدي أتمدد في ضعفي كلما كنت وحيدة. أحلم في كل مكان.أحلم كل ثانية وأعود إلى وحدتي كي أبكي ألف مرة. أنا تلك الغجرية التي يحلم بها العشاق في منامهم، يسبحون معها في بحور الحب وتنجّم للكل ولكنها لا تستطيع أن ترسم أو تتنبأ بما هو قادم لها.

كثيرًا ما كرهت نفسي لأنني نادرًا ما تعودت على حبها، كانت أمي تعلمني دائمًا دروسًا في كراهية النفس وهي تبكي في وجهي: «من يحب نفسه فهو ضعيف الإيمان، من يطمع في الأمل فقلبه

أجـوف مـن الداخـل، مـن ينتظـر من الدنيـا الكثيـر فبه جمـرة من جمرات النار».

أنا أكره نفسي منذ طفولتي لم أمارس معها تصالحًا قط أو رضًا، كيـف لي أن أرضى عنها وهي التـي تركت أبي يموت من الصمت سـنوات ظل فيهـا راكعًا وعينه لا تفارق السـماء، يناديـني: «يا ريتا قلبـي يصعد للسـماء، أنا أرحـل لها فـي الصباح، وأعـود لكم في الليل، قلبي يرحل عنك يا ريتا لكنني أعود دائمًا إليك».

أهـرب من ندائـه علي، وأخاف من خالقـه، تهزني الرجفة كلما خاطب السـماء فوق سطوح بيتنا. لماذا تركت أبي ينزف بين كروم العنب وهربت خوفًا من ربه...؟

لقد ظل يسـجد سـاعات طويلـة وكنت -فقـط- أراقب نبضاته هـل توقفت. كنـت – فقط- أراقبه ولا أفعل شـيئًا. لمـاذا لم أفعل شيئًا عندما كان يتوجع؟ لماذا لم أمنحه قطعة صغيرة من كبدي كي يكون قادرًا على الهضم؟؟ لماذا تركت كبده ينزف، فقط واكتفيت بشم رائحة القيئ..؟؟

بـل كنت أقذف بـاب غرفته في وجهه كلما فشـلت في تخفيف ألمه، لم تكن تكفيه كل تلك الوسائد التي أجمعها فوق رأسه، وأنا أبني بها هرمًا وأتربع فوقه وكأني ملكة عرشـها شـرايين أبي النافرة من الوجع، تركتك هناك يا أبي وراء طفولة نزقة وأنت تصرخ:

- «ضمـدي آلامـي يـا ريتـا، لا تتركي رأســي هكـذا معلقا بين المـوت والحيـاة، اضغطي بكامل مؤخرتك يا حبيبتي فوق رأســي ب أستكين».

أفشـل دائمًـا يا أبـي في تضميـدك وصوتك المتوجـع يترجاني أكثر:

- اضغطي بكامل قوتك، وأنا أبكي «لا أعرف... لا أعرف».

تحيط يدك بأردافي وتضغط عليها فوق الوسـائد لتخفف الألم يتقطع صوتك:

اضغطي يا ريتا رأسي في معركة، إنه ينفجر.

أختنق من البكاء «لا أعرف... لا أعرف».

- حاولي يا ريتا لا أستطيع التحمل.

أردد «لا أعرف.. لا أعرف». تدفعني تشـنجات قوية من رأسك لأسقط على الأرض.

تفقد الوعي يا أبي وتتحول إلى ملاك صامت ممدد على السرير ودمـاء قوية تندفـع من فمك. أصرخ يا أبي، أجري بجنون على كل وسـائد الغرفة لأكون عرشي على رأسـك المتعب، وأهز مؤخرتي فوقها، وأنا أندفع داخل رأسـك «أفق يا أبي إني أعرف.. أفق يا أبي إني أعرف».

أصرخ وأهزك بين يدي: «لا تتركني يا أبي لترحل إلى ربك، لقد أخذك مني كثيرًا، وأنت تسبح في سمائه فلتترك لي سماءك أستظل

بها». لماذا لم تسمع نداءاتي يا أبي؟ لماذا تركتني أهتز فوقك وأنت فـي الغياب؟ لمـاذا تركتك يـا أبي؟ لمـاذا تركت أبـي؟؟... لماذا تركت أبي...؟؟.

تدفعني «زهوة» وهي تهزني:.

- إصحي ده كابوس.. كابوس أنا ماما أنا ماما.

تنتزعنـي بيـن يديهـا وتضمنـي إلـى أحضانها، وجدتي تشعل نـور الغرفـة المعتمة. وتتكئ على عصا من العاج ووشـم السـمكة الأزرق يلمـع فوق جبينها، وبصوتها المتقطع أرى وجه يتربع على وشـمها. أبكي في فرح «تاتا.. تاتـا.. بابا في جبينك، إني أراه هناك لديك، هناك يضحك يبتسـم بجلبابه الأبيض، السـبحة تسـكن في يده، يضحك لي، إنه يضحك، يلوح بيديه يريد زهوة.. يريد زهوة، لماذا لا يأخذني معه يا تاتا... تاتا... تاتاااااااااااااااااااااااا».

رذاذ ماء يخرج من فمٍ لا أرى ملامحه جيدًا يغمر وجهي كالمطر وصوت لا أميزه:

«فوقي يـا ريتا بابا وتاتا في الجنـة.. فوووووقي فووووووقي فوووووقي».

أنتبـه، أصحو من نومي، والغرفة معتمة ونور خافت من مصباح صغير تشعله أمي، تعاود ضمي بين أحضانها:

- حاولي تنامي بهدوء روح بابا معنا في كل مكان لم تتركنا.

أحضن قلبي بين أضلعي وأنام كوضعية طفل في رحم أمه. أنام وكل الوجوه التي أحبها تنام معي. جدتي لأمي تنام معي تمشط يدها الدافئة في فروة رأسي، وصوتها الحزين يرن في الماضي.

- «إن بكيتي يا عين تخللي مين
تخللي فلان.. دا الكل غاليين
حتى إن بكيتي تبكي غراب نوحي
من كتر البكا.. بأبكي على روحي
حتى إن بكيتي تبكي شوية شوي
أبكي على الحيين بدمع كي».

أغوص بعمق في عيون جدتي الزرقاء، وأتذكر طفولتي في بيتها. أتذكر شقاوتي وأنا أجلس على الرحاية، وهي تحركها في حلقات دائرية بطيئة، فأدور كحبة قمح عنيدة ترفض أن تتحول إلى طحين. دائمًا ما كنت أحب وضعيتي تلك وهي تحركني على الرحاية بشيخوخة صابرة وقططها تقفز في حجرها وهي تنهرها:

- «ما بتتهدوش تعبتوني».

قطط جدتي كثيرة، أحفادها الصغار لا يطيقون الحياة في بيت صامت مع عجوز تجر الكرسي كلما ذهبت إلى المطبخ لإعداد الطعام بكميات كبيرة حتى يغري أحفادها بالمكوث معها، يكتفون فقط بجعلها بنكًا حكوميًّا لا يمل من منح العملات المعدنية

للصغـار، بعدهـا يختفون ويتركـون الطعام طازجًـا، وتبقى القطط فقط لتفوز بالولائـم التي تعدها، تغني في مطبخها ورائحة طعامها تتسـلل فتذكـي أنفـي: «جبـت الولـد والولد سـافر بعيـد/ والبت هاجـرت لأرض الصعيد/ جوزي هاجـر لربه الكريم/ الصبر نايم في قلبي الحزين».

أنا فقط مـن أحب المبيت معها، أحب رائحـة العجائز، وأحب وشـم سـمكاتها الزرقاء علـى يدها، أشـم رائحة الوحـدة في بيتها الرطـب ورائحة قهوة الحجاز التي كان يحضرها أبناؤها من هناك. تفخـر أمـام الضيوف بهـم لأنهم يجاورون السـعد وهـي تعد لهم القهـوة المحوجة بالبنـدق، أتطفل على جدتي «يعني إيه السـعد يا تاتا»، تنظر في عيوني وجبينها الخمري يلمع نظافته: «السعد أرض المصطفى عليه أفضل السـلام، المحبوب ابن سـتنا آمنة اليتيم ابن اليتيم».

تصمت جدتي، تتلبسها الحاجة «طاهرة الحجاز» وأنا في بيتها، تتلبسـها وأنا وحيدة معها. كيف لطفـل أن يواجه قرينًا حتى لو كان من أرض الحجاز؟

يتغير صوت جدتي تنادي علي وجسـدي يرتجف من الخوف، تناديني «طاهرة الحجاز».

- أحضـري لـي شـالا، اسـتري رأسـي لا أحـب أن يـرى أحد وجهي.

ترتعش يدي، وصوتي يختنق بالبكاء، يلاحقني صوتها:

- اقتربي مني يا صغيرة، لا تخافي بيت جدتك طاهر كأرض الرسول، أنا لا أؤذي بشرا كيف لمن جاور المصطفى أن يخيف هذا الوجه البريء.

تتثلج أطراف يدي، أزمزم باختناق رافض لدعوتها، ويدي تقذف على وجه جدتي شالا أبيض لتغطي رأسها. يتمايل رأس الطاهرة ومعه يتمايل رأس جدتي المغطى بالشال يمينا ويسارا، وتذكر «الله يا زين اللي حضرت/ غطيت على كل الحضور/ طليت علينا ونورت ما بعد هذا النور نور».

يهدأ الخوف قليلًا بداخلي، تقول لي «الطاهرة»:

- لا تخافي كل خالاتك يفرحن لقدومي، لا أقبض أرواح الصغار، اقتربي مني لو تعرفين كيف تنتظرني جدتك فسوف تشفعين لي ويهدأ الخوف بداخلك.

تحاول الإقتراب مني ورأسها مغطى بالشال الأبيض الشفاف، أختلس النظرات تحت الشال ونبضات قلبي تنحسر تدريجيًا. ملامح جدتي تتلاشى وعيونها الزرقاء تتحول إلى بياض ونور يغطي وجه الطاهرة يشل قدرتي على النظر، تقف جدتي وشيخوختها تنهر العصا العاج الذي تستند عليها، وشبابها يضحك ضحكات عالية فتهز غرف البيت، تقترب مني أكثر وقبل أن تلمسني أسقط على الأرض صريعة فاقدة للوعي، تهزني يد تمتد لي في بطء وأصوات

رنين «طست الخضة» يستفز غيبوبتي لإستعادة الوعي، تلتقطني يد الخالة وهي تنفخ أنفاسها في وجهي فتتفتح عيوني ورأسي لا يكف عن الدوران، جسدي يرتعد بين يديها وأنا أهمهم «الطاهرة كانت هنا... كادت تلمسني بيدها. عيون جدتي لم تعد زرقاء لم تعد زرقاء.. أين.. أنا.. أين أنا».

تضمني خالتي إلى صدرها بقوة وهي تطمئنني:

- «الطاهرة بركة على جدتك وحضرت لمحبتك».

- أنا لا أحبها أرادت قتلي.. أنا لا أحبها.

تزغرد خالتي: «هل قامت بلمسك حقًا. ستجاورين السعد، ستذهبين لبيت الله الحرام، إنها لا تلامس أحدًا».

- لا أريد منها شيئا، فلترحل فقط بعيدًا، إنني أخاف منها، ولا يهمني إن لامستني أم لا.

تصيح جدتي في غرفتها: «يا سابل سترك إذا أحاط البلاء يا سامع الأصوات من تحت العلى بحق كرسيك المنشود ونبيك المحبوب تطمئن قلبي الخائف المرعوب».

تتسلل دعوات جدتي اللي فأقفز في صدر خالتي مرتعدة: «إنها قادمة، الطاهرة لم ترحل.. لم ترحل».

تضحك خالتي وهي تدفعني في صدرها لألتصق بها: «لقد رحلت، جدتك صارت مثل الشابة لم تعد تجر الكرسي بين

الغـرف، صارت تمشـي بـدون عصاها العـاج هـل تصدقين؟ هل يمكن أن تكرهي بعد الآن «الطاهرة» عندما تحضر؟.

تطبطب خالتي على كتفي: أنتِ شفافة مثل جدتك لذا حضرت الطاهرة للكِ خصيصًا».

أستيقظ من طفولتي وأفتش عن وجه جدتي بين عجائز الجريدة التـي أعمـل بهـا فـي الصبـاح فـلا أرى مـلاح الطيبة ترتسـم على وجوههم. لماذا تسللت الرحمة هاربة من بين أيديهم؟؟

هم يكبروننا في العمر، نعم، هم يعرفون عنا أكثر فهذا صحيح، ولكنهم لماذا يقتلون كل أحلامنا هكذا؟؟؟؟؟

يدفعوننـا إلى الإحباط الذي يؤكـد خروجهم من التاريخ. دائمًا ما كان يشـفق علينا الدكتور «ضياء» قبل رحيله حينما يرى كل هذا الانكسـار في قلبي ويصبرني بحكمته: «إنه إحباط اليسار الوقوعي الذي لن ينتهي إلا بانتهاء تناقضهم الفج، ولكن المستقبل لكم أنتم بذور مصر الحقيقية فلتتمسكوا بالأمل ويومًا سيسقطون جميعًا».

لكـن كلمات الدكتـور «ضياء» تتبدد. أحلام عجائز اليسـار هنا تمـوت فـي الجريـدة ومعها تمـوت أحلامنـا. نتحـول جميعًا إلى وجـوه مكفهـرة في الصبـاح وكلمـات الشـتائم بيننا وبين رؤسـاء أقسـامنا تتحول إلى سـأم يومي متكرر. ونحـن نجلس على طاولة كبيـرة فـي مواجهتهـم يمتـد عليهـا الذبـاب، وخيـوط العنكبوت تسـخر من رضوخنا في أعالي السقوف، وأحتج لذاتي. لماذا يترك

الذباب أرض مصر ويستقر في هذه الصالة التي تنتفخ من أنفاس المحررين؟؟

يبدو أن هذا الذباب يشبه أصحابه كثيرًا، إنه لا يتوقف عن التطفل علينا، يحاصرنا ونحن ننتقم منه بتشغيل مروحة يتيمة أعلى السقف، وخيوط العنكبوت تحتضن المروحة في دورانها، والذباب يمارس عناده بالتحليق حولنا ليذكرنا بأنه لا هروب قد يشي به المكان، تدور المروحة لدقائق يطالب الجميع بإطفائها لبرودة لن يستطيع المرتب أن يتكفل بعلاجها لو أصابتهم لعنة أنفلونزا شتوية.

- يلعن ديك ده دبان على ده جورنال.

اتفوووووووووووووووووووووووووووووه.

يمتد صوت «كمال» إلينا ويده تلاحق كل ذبابة تطير على رؤوسنا، وأذني التي تشبعت من اللعن تخاف من الديوك التي فاض بها المكان، أسر إلى «سويم» صديقتي عن نيتي في تكوين مزرعة للديوك الملعونة يكون «كمال» في مقدمتها ليدخل سباق جينس للعنات. فتضحك وتثني على قدرتي في السخرية، وفي إشادتها أتذكر براءتي الأولى التي كانت تقف حدودها عند كلمتين أولها حمار وآخرها حيوان. الآن لساني يقف كل يوم عند جزر جديدة لشتائم أبدعها السخط. أتذكر هذا الصندوق الفضي المنقوش بدوائر تمتد كالأرابيسك والذي يسكن في دولابي بطمأنينة ويحوي فيه تاريخ وعيي بالشتائم. هذه الأوراق أرجع لها

كل مرة وأصنفها بعناية. الورقة الأولى مكتوب فيها بخط فلوماستر أسـود عريـض كلمـة «رعونـة». هـذه أول كلمـة حملها قاموسـي ستلازمني كثيرًا كلما أطلت نظـارة رئيس التحرير المقعرة وقامت بجولة تفقدية في صالة التحرير، أقلب الأوراق، أضحك بهيسـتريا عندمـا أرى في الصنـدوق كلمة «مازوجية» التي عجز زميل لنا عن معرفة معناها فاستبدل الخاء بالجيم ليدلل علـى تميز وعيه فصار أضحوكة لكل زملائنا بعد محاوله فاشـلة منه للانتماء في شـتيمته لمريـدي مقهى ريش؛ فأطلقوا عليه ملوخية عقابًا له لجرأة التعدي على مفاهيم اليسار.

«كمال» وحده هو الذي كون وعيي بالشتائم، لقد كان موسوعة في السـخط. في البداية كنت أرتجف مـن كلماته حين أراه يتحول في طرقات الجريدة إلى سوقي محترف لديه ملكة الوعي بالشتائم التي تلجم الجميع، قال مرة لرئيس القسم إن عليه أن يختبر رجولته في الليل حين رفض أن يفصح عن الأسباب الحقيقة لتوقف حملة الفساد التي كان يشنها على رجل الأعمال الهارب إلى لبنان. حينها لـم ينبـث رئيس القسـم ببنت شـفة، كررهـا «كمال» وهو يسـتفزه بكلماته الجارحة «قلت لك أن تختبر رجولتك في الليل».

تركه رئيس القسـم وظلت اللعنات تتقاذف من فمه في صمت: «ابن ساقطة».

تركنـا «كمـال» وأفواهنـا مفتوحـة عـن آخرها وكان فمـي أكثر الأفـواه انفتاحًـا. من يومها صـار بيني وبينه مسـافات أرتبها بإتقان

حتى لا أقع فريسة لوعيه المنحط.. هكذا أخبرته صراحة: «لم أعد أحترمك بعد الآن». ضحك بسخرية ورد عليّ بقسوة «اخلعي عنك تلك البكارة، ولا تحاكميني».

اختنقت دموعي وأخبرته أنه لا يختلف كثيرًا عن سلاطة لسان أبو لهب في فيلم «فجر الإسلام». لم تهزه كلماتي، بل قال لي إنه يعلِّم الشيطان نفسه كيف يشتم إذا تعثر. لم أبكي من «كمال» بعدها بل بكيت عليه.

بكيت حينما بلغني خبر إستشهاده بالميدان. نسيت كل شيء عن شتائمه، فقط تذكرت كيف جعلته مهنة الصحافة مجرمًا؟ وكيف إمتصت الأفكار من عقله كل النبل وتركته فريسة للفقر المدقع الذي جعله يسخط على نفسه.

بل كان يعذبها بأكواب الكحول التي كانت تترك كبده ينزف في بطء. تذكرت كلماته: «أريد أن أموت لأننا لا نستحق الحياة. الفقراء لا يستحقون تلك الحياة والحالمون لن يتذكرهم أحد».

ذهبت إلى قبر «كمال» ونثرت عليه ورودًا كان يسخر كلما شاهدني أحملها لأحد الأصدقاء، وهو يلاحقني «كيلو لحمة أحسن من الورد ده». كتبت على قبره بطبشيرة موف «الورد اللي فتح في جناين مصر».

لم أعرف أنني كنت أحبك كل هذا الحب يا كمال، حتى وجهك المكفهر أصبحت أشتاق له، لا أعرف كيف تكون جميلا هكذا في

الموت وكيف يصبح وجهك أجمل من كل تصوراتي عنه؟ أراك هناك ملاكًا تدفع بيدك البذات السوداء وهي تعرى جسد صديقتك وتسحلها. فتقتلع النخوة من أكتفاهم ويصير قضيبهم متهدلا. فقط أنت من حملها بعيدًا لتغطيها فأدماك الدفاع عن شرفها، لماذا لم ٍ اكَ قبل هذا شريفا يا كمال؟ لقد صرت أكره نفسي في غيابك، أكره كل الوجوه التي تحاول أن تتخذ من فراغك مكانا، لم يعودوا قادرين على ملء الفراغ كما كنت تحتله. حتى وأنت تعربد وتشتم ويداخلك هذا الطفل الذي كان يصرخ في الليل لأنه يريد التطهر من الظروف القاسية التي دفعته لبراثن الازدواجية. وجهك الذي رأيته في مشفى «المنيرة» مغطى بالدم ليس هو الوجه الذي كنت أراه من قبل، لماذا منحك الموت وسامة طغت على كل خطاياك؟ لماذا صار وجهك يشبه وسامة «أحمد حرارة» في نظارته السوداء؟ هل يمنحنا الوطن وسامة فقط بعد الموت..؟؟

لماذا صار القتل منهجا وشرعًا حاكمًا للبذات السوداء..؟ هل تلك هي مصر التي أعرفها؟ ومن هؤلاء الذين يقتصون منا؟ ويفقعون منا درة عيوننا كي لا نرى ولا يتركوننا سوى مشوهين أو على حافة الموت المحقق، لماذا كل هذا الخراب في وطني؟؟

جسدي مثقل بك «يا كمال»، عاجز عن الفهم بل عاجز عن التحرر مثلك بالموت. جسدك الذي سكن وغادر دنيانا يترك جسدي فيها معربدًا بالذنب، كيف لم أراك بطلا من قبل سوى في الموت؟ وجهي الذي يبقى ووجوه أصحابك التي ترحل عنا

تتركنا جميعًا بلا قيمة وبلا حياة وكأن رقابنا جرحتها سكين ظل معلقا فيها فلا هي تركتنا نتشبث بالحياة ولا هي تركتنا نموت، وكأن علينا أن نظل ننزف دون أن نموت. أتوه في شوارع وطني «يا كمال» تملؤني الغربة فيه، أتنفس بمقدار ضئيل لأن السماء من بعدك قاتمة تخلو من الهواء ولكنها تمتلئ بالغازات السامة وبقنابل المولوتوف. ترحلون جميعكم في بطولة لا أمتلك جرأتها، لم أعد قادرة على اختيار ميتة تليق بي. لدي فقط جسد يحبو في الشوارع ولكن روحي غادرت كهف الحياة من زمن وتركتني ممزقة ككل الأشياء التي صارت ممزقة في وطني.

الفصل الرابع

بيت العائلة يناغم ريح الشريعة

ليست هي المرة الأولى التي حاول فيها الكثير إغوائي بالشريعة، ولا تحاولين معي

لأن جمجمة رأسي عنيدة كعند صبرك كأرملة؟

باندفاع قطة شرسة أحاول إيذاء «زهوة» فتصمت. لأول مرة ترى نفسها عاجزة عن فهم فتاة اندفعت بين أقدامها فسببت لها ألمًا كبيرًا برأسها الضخم الذي انحشر في الرحم مما جعل الطبيب يستحثها صارخًا في وجهها: «خذي نفسًا عميقًا وأطلقي طلقة أخيرة لأن رأسها عالق لا تريد أن تتركك».. لا تريد «زهوة» الدخول مع «ريتا» في معركة جديدة تكتفي فقط بذكرياتها، كم عانت في حملها؟ وكم كان رأسها ينبىء بأنها ستصير علامة كبيرة من عذاباتها اليومية بعد غياب «يوسف» الذي دللها ورفع من شأنها قبل رحيله حتى صارت لا ترى رجلًا غيره في الوجود.

لم تعد «زهوة» قادرة على الدخول في معركة معها فقط قالت لها:

«لست في حاجة لكل هذا العنف، لكن السلف الصالح هم خير من يمثلوننا في البرلمان».

ترد عليها: «ألا تكفي تلك الشريعة التي تتحكم في كل تفاصيل حياتي منذ ولدت؟ هذا ثوب ضيق لا يليق بك، هذا حجاب طويل سيغطي مؤخرتك، لتنجحي في الرياضيات عليكِ بصلاة الفجر كي يهبك الله عقلًا بارعًا قادرًا على فك المعادلات، لديك قلب برئ وبصيرة حادة ينقصها الدعم من الإلتزام، ما الذي تبقى سوى أن تجلس الشريعة في البرلمان لتعبر عن روح ثورتك على الفساد الأخلاقي؟».

- هكذا أنت اليوم لا أعرف لما تغيرتِ، إلى هذا الحد يا بنتي؟؟ حتى الصلاة تتركيها منذ وقت طويل، واليوم ترفضين الشريعة!!

سئمت من كل شيء حتى سئمت من نفسي ومن غباء البسطاء. سئمت من هذه الوجوه التي تتحدث باسم الثوار، وكانوا في الماضي يرفضون الخروج على الحاكم، الآن هم ثوار بثياب الشريعة ويتحكمون في مزاج الماما.. يا لروعة الثورة ويا لروعة غباء البسطاء.

- شكرًا، كتر خيرك، أخيرا صرت غبية في نظرك.

- بصراحة لست قادرة على التسامح مع الغباء ولم أعد قادرة على التحمل وأنا أراك تسبحين في هذا الخداع الطويل.

- ربنا يهديكي يا بنتي ويمنحك الإيمان.

- أريـد الجحيـم حتى أبتعد فيه عـن هذا البيت، لمـاذا تصرين على عدم فهمي لماذا!!!!!!، لماذا!!!!!!، لماذا!!!!!!!؟؟

- ربنا يهديكي، لن أقول لكِ غير ذلك.

- لا أريد أن يهديني، بل أظل هكذا مجنونة.

تسـحب «زهوة» سـجادة الصلاة من تحتها وهـي تقف في ثقل وتتنهد بصوت عال: «صبرني يا رب على الشقا».

تخـرج «ريتا» من غرفتها وتقذف بابها بقـوة وهي تصرخ وراءه بصوت عال: «متى أرحل يا ربي عن هذا البيت».

ترحـل «ريتا» إلـى غرفتهـا ودب الضجر يتمـدد داخل صدرها باسـتراحة؛ فيضغـط عليها ويحدث لها إختناقًـا يجعلها تتنفس في بطء.

تريـد دفعـه بتمددها على سـرير غرفتها، وتبدأ فـي رحلة تأمل لحركـة العناكـب التي ترتفع في السـقوف بعدمـا أحبطت نداءات أمهـا بحثها على تنظيفها والتخلص منها أولا بأول لإشـباع رغبتها فـي التنظيـف الدائم داخل البيـت، والذي يبعث لهـا الملل لأنه لا يتزامـن دائمًا مع رغبة «ريتا». تقول لأمهـا: إن رغبتها في التنظيف ترتبـط ارتباطـا وثيقـا بمزاجهـا النفسـي، وإنـه لا يمكـن لأحد أن يجبرهـا على التنظيف مـا دامت لا ترغب في ذلـك. كانت تصرخ أمهـا في وجهها وهي تؤكد أنها لن تفلح مع الرجال، ولا يمكن أن تنجح حياتها الزوجية وهي تفكر بهذا العناد الدائم، وهي تسبح في

مجرتها الحالمة وتبتعد عن فهم الحياة والضروريات التي سوف تفرضها للإنصياع لها بصرف النظر عن توائمها مع مزاجها النفسي أم لا.

تغلق «ريتا» الباب في وجهها وتتمزق من سأم النصائح الذي لا يمل من التكرار، وتبكي داخل غرفتها وتسبح العناكب فوق السطوح وتبدأ لوم نفسها على تصرفاتها غير الأخلاقية مع أمها وضجرها الذي لا تفلح كل مرة في تهذيبه حتى تخترع ردًا لطيفًا تنجح أختها الكبيرة دائمًا في إتقانه، وتفشل هي كل مرة في تقليدها. الآن هي كبيرة بما يكفي لأن تعرف أن ضروريات الحياة تنتصر، وأن مزاجها النفسي لابد أن يتعلم ألا يحلق أكثر من سقف الحجرة. هكذا قال لها «طاهر» ذات يوم وهي تحكي له عذاباتها اليومية مع عائلة ما زالت تنظر لها على أنها بنت، وليس لغير هذا المعنى أن تحلم.

نصحها أن ترحل عن هذا البيت وتترك مصر بلا رجعة كي تتحقق، أو أن تكف عن تلك الشكوى اليومية وترضى بالإستجابة لمحاولات أمها المستميتة بزجها في عش الزوجية مع رجل يحميها من وحوش المدينة.

نظرت له بعيون محتقنة وكانت لديها رغبة في تمزيقه؛ فتنبه أنه جرحها وحاول تهدئتها، إنه أيضًا مثلها سوف يختار يومًا أن يرحل إذا قرر له الرحيل لأن هذا الوطن لا يقبل بالمختلفين، ولن يترك لهم مساحة حتى يبديهم عن آخرهم، ويقتل العزيمة التي بداخلهم

يومًا عن يوم حتى يستسلم الأبطال ويختارون الموت بديلًا عن الحياة. قاطعته «ريتا»: لكني لا أريد أن أموت، خلقت هكذا ولن أكف على أن أكون بطلة. قاطعها «طاهر»:

- لا تتحدثي عن البطولة لأنها لا تليق بأمثالنا.

فتواجهه: كل يوم يتأكد لي أنك شخص مهزوم، حين تفشل في المقاومة تجد نفسك أمام خيارين لا بديل لهما إما الهجرة أوالإنتحار، ويا ليتك تنتحر حتى تطبع في ذاكرتي أنك بطل، ولكن الحقيقة أنك اخترت السخرية والجبن.

يستفزها:

- أنت جبانة أيضًا ولا تحاولين الهروب من تلك الحقيقة. هل تجرئين على مصارحة أمك أنك تحبين ناشطًا سياسيًّا وفوق كل ذلك شاعر، هل تستطيعين تقبيله أمام العالم مثلما أقبل حبيبتي، هل لكِ أن تتركي الجريدة التي تنبعث منها عفونة الإزدواجية وتختاري لنفسك طريقًا معربدًا دون أى تناقض. لقد قمت بتجاوزك هذه المرة ورفضت كل هذا، ويبدوا أنك تحبين رؤيتي لأنك تكتفين بي بديلا عن جبنك الذي يحجم قناعاتك. ادفعي يا «ريتا» لنفسك الباب كما فتحته «فاتن حمامة» أمامها في الباب المفتوح وذهبت وراء صالح سليم. حرري تلك الضفائر التي اعتادت أمك على عقدها. قبلي «آثر» أمامهم دون خجل، إصرخي في وجه الجميع أن رسم حواجبك قناعة مشروعة، إهجري كل

الخطوط المستقيمة وإتركي تلك المغامرات التي تسكن روحك فقط، وغامري في الحياة بإيمان.

تشعر «ريتا» بالعجز عن البحث عن ردود فتكتفي بالصمت لحظات وترد: أنت لا تفهم شيئًا عني.

- ولا أريد أن أفهم، سئمت بصراحة.

- ولماذا تختار صداقتي ما دمت أشكل لك هذا السأم.

لا أعرف. أشعر أنكِ ابنتي. ابنة أكرهها وأحبها في آن واحد.

- ليس عليكَ أن تثقلَ نفسكَ بمحبتي وكراهيتي في آن واحد، اتركني وكأن شيئًا لم يحدث.

- لا أستطيع.

- الأمر لا يحتاج منك مجهودًا، ليس عليكِ سوى مسح رقم هاتفي ومحو صورتي من ذاكرتك وكأنها لم تكن.

- ولكن ذاكرتي لا تمحى يا «ريتا»، إذا نجحتي في محوها فسأنجح أنا في إتباعك.

- منذ متى وأنت تشعر بي؟؟

- منذ أن رأيت عيونك الحالمة تسرح في صالة الجريدة، ساعتها كنت ترتدين بلوزة بيضاء تحيط من خصرها شريط دانتيل أسود وجونلة سمراء، وحزن يحيطك بهالة من البياض. قلت في نفسي: إن هذا الوجه المعذب ينتمي لي أنا فقط. تركتك تتكلمين ولم تكن من هوايتك التحدث بإستفاضة، كانت الكلمات تخرج

منـكِ مجروحـة ومرتبكـة ومعدودة. كنـتُ أمشـي وراءك حتى لا تتعرضيـن لـلأذى فـي الشـارع. مشـيت وراءك، وكل يـوم كانـت محبتـك تتفتـح في قلبـي يومًا عن يـوم كزهرة بيضـاء، ومن حينها أيقنت أنكِ قدري وصديقتي في الموت والحب.

- وأنتَ أيضًا قدري، هل تعدني يا «طاهر» بأنك لن تتركني.

- لن أتركك، ولكن لا تحاولين استفزازي مرة أخرى بكلمات مثل الظروف تقتضي هذا وذاك، نحن لم نخلق للظروف. بل علينا أن نختـرع لنـا ظرفًـا خاصة وخيالا خاصًّـا وأرضًا خاصـة بنا، ولا نكترث بكل الأوغاد السـاكنين على هـذه الأرض، ولابد أن نكف عن لوم أنفسـنا وجلد ذاتنا بهذا الشـكل المـذري الذي تفعلينه مع ذاتك. نحن نستحق أن نحترمها يا»ريتا».

تعلمـي أن تحترمـي إختلافك وتقدريـه ولا تخافي، ألم يقل لنا الدكتور «ضياء»: إن اليقين طريق الوصل.

- نعم.

- صافي يا لبن؟

- حليب يا قشطة.

- هل انتهيتِ من كتابة روايتك.

- لا.

لماذا هل يعطلك شيء؟

- أشــعر أنـنــي غير قادرة على الكتابة، تتجمــع الكلمات داخلي وحين أجلس على طاولتي لأخط سطورًا أفشل لا أعرف لماذا؟؟

- ولماذا تضغطي نفسك على الكتابة؟

- يبدو أن «سويم» كان لديها حق حينما قالت عني إنني فم كبير سيظل يحلم فقط بالكتابة ولكنه لن يكتب شيئًا سوى التمني.

- أنـا أحب طقـوس ماركيز فـي الكتابة «يجب علينـا أن نكتب لأننا نريد أن نكتب وليس أن تكتبنا الكتابة.

- هل تقرأ له الآن؟

- «كيـف تكتب رواية». كتـاب رائع أتمنى أن تقرئيه، للأسـف تيـارات الكتابة هـذه الأيام ابتعدت عن المزاج وصـار همُّ الكتاب الشباب التحقق وفقط عبر النشر، وهذا ما لا أحبه.

- لكـن نجيب محفـوظ كان يحب تلك القاعـدة، وكانت تأتي بنتائج.

- لا أهتـم بالنتائج. الكتابة إن لم تكن مثل الفراولة فبلاش منها أحسن.

- ازاي؟؟؟؟؟؟؟؟

- بحب الكتابة تلسـع لساني زى الفراولة، ما تكونش باردة زى الباردين اللي مرصوصين على فرش وسط البلد.

- على قولك.

- أنا مضطر أمشى حالًا.

- أوك، متى سأراك؟

- لما يأذن ربنا.

- ماشى يا مان see you.

- See you....

أودع «طاهر» وأنا ذاهبة للجريدة وصوت الغراب يلاحقني في شارع الجامعة. أمشي وأتذكر تلك الليالي البعيدة يوم كانت لنا أحلام كبيرة. وأشعار نيرودا ولوركا تهز في قلوبنا الثورة. محمود درويش هو أيضًا كان بيننا ذات يوم. نقرأ كلماته بوهج وهو يتحدى أعداءه: «لن تمروا على جسدي». لماذا ذهبت عزيمتنا وراء السحاب، وسمحنا أن يمر على جسدنا كثير من الأوغاد؟

لماذا نسكن في جريدة نكره فيها وجه رئيس التحرير كما قال «طاهر» ونحب العمل معه؟ نواجهه بقتل أحلامنا ونظل نقتلها معه مرارًا وتكرارًا وهو شاهد على جريمة الحاجة.

كل الأشياء لم يعد لها طعم. حتى «كمال» مات بيننا ولم يعد أحد ينثر ورودًا على قبره. في عيد تأبينه لم أجد أيًّا من أصدقائه يبكي. جفت الدموع وتوقفت بل تجمدت بيننا، حتى دموعي تجمدت لم تعد تبكي على الدكتور «ضياء» مثلما كانت تبكي بحرقة. تجاهلت بتعمد مؤتمرًا يتحدث عن إسهاماته الفكرية في نقابة الصحفيين، نظرت ببرود للوجوه التي اعتلت المنصة

لتتحدث عنه وتقيأت عليهم جميعًا في ذاتي وكفرت بهم ورحلت. تركوا نضالـه وإختاروا فقط التجارة به. التجارة بسياسي شريف مربحة، وكل المناضلين في وطني صاروا يربحون مبالغ تكفي لتغطيه جوع من هم تحت خط الفقر نسبتهم كبيرة تتخطى ال٪54 والمناضلون يفوقون النسبة بجدارة.

الكل توقف عن اللوم، الكل سكن الصمت وإختار لقمة العيش. لم يعد بيننا متمردون يكتبون البيانات تلو الأخرى ويهددون رئيس التحرير بالإحتجاج. لقد أصبحنا مستأنسين. قبض زعماؤنا رواتب ضخمة، ولم يعد أحد يفكر في النصر، لم يعد أحد يتمرد لشيء قط.

مات المتمردون وعاش الموظفون، وصرت مثلهم موظفة كبيرة. تصعد سلالم الجريدة ولا تكلم أحدًا فقط تتحرك من أجل ملاليم. تلقي بتمردك في الحياة، وتتمردين فقط على «زهوة». لو أعرف بيتًا أودع فيه كل تلك الهواجس مثل أصدقائي. لو أتحول بين ليلة وضحاها إلى خفاش لا يرى، وإلى صخرة لا تسمع. يا ليتني كنت جوفًا في صحراء عريضة أو ورقة مهملة في سلة قمامة.

الفصل الخامس

مجتمع ذكوري متعفن

«نعقد هذا المؤتمر في وقت يتم فيه سرقة الثورة، ونحن نعرف أننا كنَّا أول إتحاد يصدر عنها بيان يؤيدها قبل اندلاعها، ولذا حرصنا كل الحرص على عقد هذا المؤتمر في هذا التوقيت لنؤكد على قوتنا في مواجهة مَن يحاولون سرقتها، ولن تنجح محاولاتهم الآثمة في إسكاتنا، ونحن نعرف أننا نتعرض لهجمة شرسة من قبل التيارات الدينية من أجل تهميشنا وإبعادنا، ويجب عليهم أن يعرفوا أنهم سوف يواجهون كتلة ليست صامتة ولن تكون أبدًا في يوم من الأيام حزب كنبة. وأتفضل بترك الساحة لضيوف المنصة لكشف المخطط لمعرفة ما هي الآليات الضرورية لمواجهته».

– سيدي الرئيس أوجه التحية لك ولكل الحاضرين ولكن أريد القول: إننا لم نحضر هنا كي نتسول من التيارات الدينية لنحثها على قبولنا كآخر، وعلينا أن ننتبه إلى أننا كمثقفين لم نصنع تلك الثورة، ولكن جيل الشباب هو من صنعها وعلينا الإعتراف بذلك حتى لا نسبح في وهم بطولة مصطنعة.

تتصاعد الأصوات بالقاعة وهي تعترض بفوضى على كلماته.

ينهض مشارك، وهو يجري على المنصة لالتقاط الميكروفون؛ لمحاولة قتل الكلمات المهاجمة لنصر العجائز المتقاعدون، يخطفه بحرقة وأنفاسه تتقطع وهو يحاول الدفاع عن نفسه وعنهم.

- نحن أول من صنع الثورة، كلمات الأبنودي كانت تهتف في الميدان، وأشعار سيد حجاب كانت تلمع كالقمر المضيء في سماء الثوار. بطلوا جلد ذات بقى إحنا استوينا.

تتصاعد الأصوات المحتجة على إدانة المنصة، وتهجم عليها كاتبة بشعر مجعد وهائم في السموات السبع وهي تنظر إلى الجميع بعيون متمزقة وخيوط حمراء ترسم حول حدقة عيونها السمراء علامات غضب عنكبوتية تتجمع لتهاجم رئيس الجلسة.

- نحن في مجتمع ذكوري متعفن. بقالي ساعتين مش عارفة أتكلم، التيارات الدينية هتحجبنا، وإنتوا هتموتونا بالتجاهل. هل يستطيع أحد منكم تفسير لماذا تخلو المنصة من الكاتبات؟ لماذا لا توجد امرأة تمثلنا؟.

يقاطع كلماتها أحد المشاركين ويعلو صوته في مواجهه إتهاماتها: «عقدة المجتمع الذكوري بدأت ما شاء الله».

وقبل أن يكمل سخريته تهدده بإحتقان وهى تريد قتله:

- لن أسمح لك أيها العضو بالتهكم علينا. أنتم فقط تتذكروننا لتعريتنا في رواياتكم وقصائدكم. ترموننا بالورود حتى نصير لكم

مجرد مخدة على السرير.. أين أنت يا» أروى صالح» مثلك أعانى من «سرطان الروح».

- أعترض سيدي الرئيس على ما قالته، وأريد أن تسحب إهانتها فورًا. نحن لم نقتل «أروى صالح» العقد من الرجال هى من قتلتها.

تواجهه: بل أنتم من قتلتوها بتناقضكم الفج وحيوانيتكم المهلك. لن أسحب كلمة مما قلته ولن أعتذر... إيه قولك بقى؟؟؟؟؟؟

- «لا حول ولا قوة إلا بالله».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله» تنفع قوي تدخلك البرلمان صاحب بيها «الحرية والعدالة». روح اشحت هناك منهم حتة منصب.

- أنتِ هتحاكميني وهتمنعيني أقول كمان «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فعلا ناقصات عقل ودين.

- أنت اللي ناقص وإذا أكملت مرة أخرى سأقوم بطردك من المؤتمر.

- بأي صفة بتكلميني حضرتك، جبروت الهانم انتهى وزمنكوا راح خلاص.يحاول رئيس المؤتمر تهدئة الحضور وهو يتدخل:

- لو سمحتوا دي مش طريقة نقاش بينا، إحنا واجهة وما يصحش تبقى صورتنا كده قدام الإعلام.

يلقي رئيس المؤتمر بنصائحه، وهو يحاول التقاط الميكروفون من أيدي المشـاركين، ويطالب الجميع بالهدوء حتى تبدأ الجلسة الأولى للمؤتمر.

تصـرخ ذات الشـعرالهائم: سـيبوني أكمـل كلامـي أنا لسـه ما خلصتش، البيه رئيس الجلسة بينزل من عليائه لإلتقاط الميكرفون، إنتوا جايين تسمعونا ولا تسمعوا نفسكم. إنتوا هتبطلوا تكونوا زي «اليويو» إمتى؟؟

- مدام «نجوى» ما يصحش كلامك ده.

وقبـل أن يكمـل رجـاءه تهاجمه بإصبـع إبهامهـا الغاضب: ما تقولش «مدام».

- طيب يا آنسة «نجوى».

- ما تقولش «آنسة».

- بما أناديكي إذن؟

- قول أستاذة «نجوى».

- حاضر يا أسـتاذة نجـوى، ممكن حضرتك تهـدي ولو عايزة تيجي تقعدي على المنصة مكاني تعالي.

- ما أجيش ليه؟؟ طبعا جاية.

تصعد سـلالم المنصة بسـرعة وقبـل أن يمنحهـا الميكروفون تخطفه في إستعجال، وتبدأ سلسلة من الإدانات: أولا هذا الإتحاد لا يعبـر عن المثقفين وفاقد للشـرعية وأي عيال صغيرة بتلعب في

الشـارع بتصدر بيانات شـديدة اللهجـة أبلغ مننا بكتيـر. إحنا بقينا نايميـن في العسـل، يقدر حد من حضراتكـوا يقولي هنفضل لغاية إمتـى نكتفي ببيانات الإدانة. إعتصام مجلس الوزراء مات فيه ناس كتير ورئيس الإ تحاد بسلامته مش راضي يستقيل من الحزب اللي بيمثـل الحكومة، وأخرتهـا يطلع بيان خايب يقول «نحن نشـجب ونَدين» طب بالذمة ده اتحاد إيه؟؟

ده الألتراس بيتحرك أحسـن منا وهما شـوية عيـال بس رجالة. الحقيقـة يـا حضـرات إن الخيبـة اللـي إحنا فيهـا بتفكرنـي بخيبة «ياعمال العالم اتحدوا».

يواجهه رئيس المؤتمر:

- أستاذة نجوى ممكن أسألك سؤالًا؟

- إتفضل يا ريس.

- هـو حضرتك جاية المؤتمر ليه، عشـان تهزئينـي؟ أولا أنا لو ما كنتش رئيس ديمقراطي كنت ببسـاطة أشـطب عضويتك من الإ تحـاد، بس مهما كان أنا بأحترم كل من ينتقدني، ولكن لن أسـمح لأحد أن يشـكك فـي وطنيتـي، ولو حضرتـك نسـيتي تاريخي أنا ممكن أفكرك. أنا دفعت ثمن التمرد في الجامعة بسنين في السجن وحضرتك من نفس جيلنا ياعني، ما بقولش كلام في الهوا.

- هـذا صحيح، لكني لا يشـرفني أن أكون مـن جيل تم تدجينه داخل النظام، واللي على رأسـه بطحة يحسـس عليها، والحمد لله

إن عمري ما كنت زيكم لا قبلت بمنصب ولا دخلت الحظيرة اللي حضراتكم كلكم أكلتوا فيها كتير وجايين دلوقتي تكلمونا عن حرية الإبداع في مواجهة التيارات الدينية. التغيير يبدأ من هنا يا ريس، طول ما أحنا مش هنتغير من هنا يبقى ما نطالبش بحاجة خالص، لأن بجد مرارتي اتفقعت، أنا ما ليش وطن غير ده أنتمي له، وزي ما حضرتك بتقول احنا واجهة وما يصحش نتناقش كده، بس بجد إحنا واجهة سيئة ويا ريت نشوف نفسنا زعماء بجد لأني بقيت أقرف من نفسي، ولازم كلكوا تقرفوا من نفسكوا.

يبتلع رئيس المؤتمر الإهانات ويمتلك شجاعة الرد عليها:

- أنا مقدر الثورة اللي حضرتك فيها يا أستاذة «نجوى»، بس ممكن حضرتك تمنحي فرصة لباقي المشاركين لو سمحتِي، أكيد مش هتلاقي رئيس ديمقراطي زيي كده ولا إيه؟؟.

تواجهه بقرف:

- ولا إيه....!!. فعلا الواضح إن اللي عاقل وسطيكوا مجنون، أنا بأعلن أمام الجميع عدم إنتمائي لهذا العبث، وأفضل أن أكون «حزب كنبة» على الإستمرار في هذا الهرج

- شكرا ليكِ أستاذة «نجوى»، دي حريتك الشخصية ولن أصادرها، ولكن ليس من حقك اتهامنا بالتواطؤ..... لو سمحتي.

يرتفع تصفيق حاد، وتنقسم القاعة لهتافات مؤيدة لوطنية رئيس الإتحاد وهتافات مؤيدة للأستاذة «نجوى».

وتكتب «ريتا» هذا الإنقسام على ورق دشت أصفر، وفرحة كبيرة تغمرها وهي تكلم نفسها: أخيرا الواحد لقى حاجة يكتبها تطلع عنوان حلو.

يتعالى الإنقسام في القاعة وتتحول إلى معركة كبيرة ولا تجد «ريتا» مخرجًا من هذه القاعة سوى بعنوان مميز إختارته للتعبير عن الصراع. تترك القاعة وتصعد على سلالم متهالكة، وهي تريد توديع تلك المهنة فتلاحقها صورة «ثروت أباظة» على جدران صالة المبنى فتترحم على هذا الزمن الجميل الذي مضى وهي تريد الإنتماء لجيل الستينات، وتتذكر كلمات صديقتها «سويم»: على فكرة أنتِ معقدة، حد يحب ينتمي للجيل ده؟!.

ترحل «ريتا» كعادتها عن المبنى المعتق برائحة العجائز، وهي لا تتمالك نفسها من الإنفجار في الضحك، وسؤال يؤرقها عن أستاذة «نجوى»: بس ما عرفتش هي صحيح مدام ولا آنسة..؟؟؟؟

الفصل السادس

غرفة للهجر

لا أعرف كيف تسلل لي. أنا التي كنت أهرب من العرسان بسباق مهرة. حاولت أن أنسى «آثر» به أو أقتل شبح صورته كلما طفا على ماء وجعي. كان يعشقني ولكن لكل عشق نهاية. تلك قناعات «أمي» التي لم تكن تعترف بعلاقة غرام خارج مؤسسة الزواج، وكان يبدو أن «آثر» سوف يرهنني إلى أجل غير مسمى، كان كلاسيكيًّا يؤمن بقصص الحب الممتدة والتي ليس من الضرورة أن تنتهي بزواج، ولم يكن لديَّ جرأة الإعتراف بقصة حبه للعائلة.

صارت ملامح «زهوة» تطفو على كل مكان يجمعني به، تطاردني في جلسات الصفو معه حتى وهو يحاول وضع يده في يدي. فجأة يدفعني طيفها إلى سرعة نزع يدي منه، كان يكره هذا الجبن ويضحك بهسترية «برضو خايفة من ماما». أنزع يدي من يده بحنين قاسٍ ولدي رغبة في احتضانه والاختباء في قلبه حتى تنتهي كل هواجسي. يحاول التقرب مني ليقبلني، فأبتعد في نصف

المسافة التي يسعى إلي فيها وأجري من بين أحضانه حتى لا أقع في شباكه. كان كل رجل في حياتي يظهر لي في صورة شبكة صيد، ولم يسلم «آثر» من تلك الصورة التي رسمتها له أيضًا. كانت شبكة صيده مغرية ومغوية وخطرة في آن واحد ولذا كنت أبتعد كلما طفت صورة أمي في لحظات ضعفي لتنقذني وتحميني. كنت أكره طفوها وأحبه لأنه يجعلني دائمًا في محمية طبيعية يحرم فيها لمس الغرباء. أتذكر كلمات جدي لأبي وهو يصعد شجرة التفاح التي كانت تنمو في حديقتنا بارتياح. قطف تفاحة حمراء متوهجة بالنضج، لم يكن جديدًا عند جدي ولكن الجديد هو إصراره الغريب على أن أقضمها.

قلت له: إنها ناضجة ومغوية بما يكفي لكي أحتفظ بها وأستمتع بهذا الحمار الذي ليس له مثيل.

لكنه أصر على تنفيذ رغبته.

استجبت له وقضمتها وما لبثت أن استطعمتها حتى تقيأتُ. كانت خيوط عفونة تربط بين أليافها فتجعل نكهتها كعش غراب نتن.

رميت من يدي التفاحة، وظل جدي ينظر بعيون حكيمة وهو يطبطب على كتفي ليعلمني أول فن في كبرياء الحرائر. قال لي: كل حرة مثل التفاحة الحمراء مغوية وجميلة ولكن لا تسمحي لأحد أن يقضمك دون وجه حق حتى لا يتقيئك دفعة واحدة ويشعر بعدها أنه قضم ثمرة متعفنة.

مـات جـدي وماتت معه شـجرة التفاح وظـل كل الرجال تفاح أحمر مغري أخاف قضمه حتى لا ألفظ طعم عفونة.

الآن أجلـس فـي غرفة مع الأهـل لمواجهة وجـه لا ينتمي لي. وجه أهرب إليه لأنسـى «آثر». لأنسـى به كل خيباتي وكل أحلامي المهدرة. أنسـى به كل الماضي المثقـل بالعذابات. اخترت ارتداء الفسـتان الأبيض لأهـرب بعيدًا عن التشـوه.. هربت من وجه أمي الذي لاحقني ومن وجـه «آثر» الذي أهملني بأنانيته وحبه المفرط للبطولة وقناعاته الغريبة أن الشعراء لا يتزوجون. يردد مثل «كمال» في بين القصرين: «الذين يحبون فوق الحياة لا يتزوجون».

تركت «آثر» ينزفني وقبل أن أودعه قلت له: «ليكن شـعرك لي، انتقم مني كما تشـاء واكرهني في قصائدك كما تشـاء، ولا تنسـاني حتى الموت».

لكنني اخترت أن أنساه، وظل ينتقم هو مني ويعريني ويقضمني فـي كل بيـت من قصائـده؛ ليوجه لي إهانـة كي يدفعنـي لحبه مرة أخرى.

فشلت كل محاولاته في استعادتي له وهو ينزف.

يوم عرسي أرسل لي بيت شعري كان شفرة حبنا «أيتها الوردة/ هشة وصغيرة/ أشعر أن كفًا واحدة تكفي كي تحتويك».

مسـحت الرسالة وعاهدت نفسي أن ينتمي لي منذ هذه اللحظة وجه «أدهم».

في «غرفة الهجر» التي احتضنت أوجاعي ببيت أبى كتبت سطورًا على حائطها: «لن تكون هناك وردة هشة بعد اليوم». بكيت بحنين لكل الأشياء التي ماتت بداخلي ذات يوم؛ الأصدقاء الذين تركتهم. بكيت «سمر» والدكتور «ضياء» وحملت كل قصائد الشعر التي كتبها «آثر» ومذقتها وحرقتها لأودع الماضي، وتمنيت من الله أن يمنحني النسيان.

رسمت وجه «أدهم» على الحائط، وقلت له: «لك جسدي وروحي، لكَ كل ما فيّ».

كان البيت يزهو بالزغاريد، وكانت «زهوة» تقف على رأسي كعادتها في مساء ليلة سيصبح غدها عرسي وقالت لي في خوف: الزواج ليس هروبًا من أوجاعنا، إنه عقد متين بين روحين»، واجهت هروبي بوجع: «هل تثقين في أدهم؟؟ هل تأتمنيه على روحك وجسدك؟؟».

هاجمتها بثقة: سئمت من التفكير في المخاطر، نعم أحبه وآمنه على كل شيء ولا أريد منك هواجس، تكفيني تلك السنوات التي ضاعت مني في الجنون.

لم يرتفع رأس «زهوة» ليواجهني، ظلت تحدق في الأرض، وبقيت فقط الوحيدة التي أتطلع لصورة «أدهم» التي رسمتها على جدران غرفة الهجر؛ حتى لا تلاحقني وجوه أرهقتني وتركتني بلا حاضر.

يـوم عرسـي هو يـوم بدايتـي أو هكـذا ظننـت. كان يومًـا مليئًا بالاكتشـافات، هو اليـوم الوحيد الذي تنتهي فيـه كل المعارك بين الأم وابنتها. يرسـم العـرس خرائط للتصالح ويصيـر كل ما مضى ليس آت. ستتحول «ريتا» إلى «زهوة» وستعرف من خلال التحول كيف هي مياه الرجل تكوي قلوبنا بالعشق؟.

تسللت «ريتا» بعد موجة الزغاريد والأنوار اللامعة التي غمرت البيـت، والتصفيـق الحاد الذي تمنتـه يومًا وهي ترى نفسـها كاتبة أمـام جمهـور يصفق لها وهـو يبدي إعجابـه الشـديد بروايتها غير المكتملة، والتي سمتها «حنين»، والتي احتفظت بها وهي محفورة بالحبـر على قصاصات بيضـاء من ورق الدشـت داخل صندوقها المنقوش بالصدف. وتمنت أن تسـمع هذا التصفيق لجنينها الأول حتـى تجرب فرحـة التحقـق. كانـت الكتابة هـي الفرحـة الكبيرة بالنسـبة لها وكانـت أوراقها هي رحلـة الوجع الممتـد الذي طوته بين غرفة الهجر سـنوات كثيرة، تكلم من خلاله «آثر»، وتكتم فيها كل مـا عجزت عن البوح به. تكتب له كلمات مجردة من الخجل. وتعري أنانيته ألف مرة في اليوم الواحد وترسم طرقًا للفهم تخفيها عنـه. آمنـت أن الطـرق يلزم رسـمها بعيدًا عن وعـي رجل حتى لا يصبح مثل شـهريار يحتفظ بسـيف مسنون يسـلطه على رقبتها في اللحظـة التـي يعـرف فيهـا نهايـة الحكايـة. خافت من هـذا الغزل الهيـن من جانبـه والذي يرسـم طرقًا ممهـدة لاعترافاتهـا. أخفت كل اعترافاتهـا دفعة واحدة وكتبتها علـى قصاصاتها الصغيرة حتى

تحتفظ بدهائه أكبر فترة ممكنة. كانت تعي جيدًا طفولة الرجل والحياة توقعه في أول مطب. يهدي كل اعترافات الأنثى لفضيحة البوح، ولا يكترث بالسرية التي تعشقها وهي ينتقم بغل ليعاقبها على الثقة يومًا بطفل. أخفت كل أوجاعها وكل التفاصيل الصغيرة التي رسمت لها ثقوبًا كثيرة في قلبها واختارت الصندوق الصدفي ليكون بيتًا آمنًا. اختارت ساكنا لا يتحرك ولا يتكلم ولا يفضح، يتلقى فقط في وقت لا يستقبلنا فيه أحد. السطور السوداء هي التي تبعث لنا فقط حلم الأبدية المتوهمة، وغرفة الهجر هي من استقبلت بترحاب روح «ريتا» التي لم تكف عن الضجر. احتضنت غرفتها ليالٍ طويلة من الملل، وبكاء بطول ليل صيفي قائظ، وولعا لا يهدأ من تمني الاستكانة، وأيامًا طويلة كانت تنتظر فيها طمأنينة لتودع بها روحها التي كانت تكرهها. كانت الغرفة التي استقبلتها بعد اليتم الأول. استقبلت أول صرخة على أبيها وظلت روحه تهيم فيها فلا تتركها تتمتع بنوم هنيء. هي نفس الغرفة التي أهدتها فيها أمها كل «قمصان نومها الحرير» وهي تدفن ألوانها الزاهية في صحارة الكنبة التي ظلت في غرفتها تطاردها وجه جدتها من عليها، استبدلت أمها بدلا منها ألوانًا تناسب وقار «أرملة». هي نفس الألوان التي ستودعها «ريتا» وهي تسرق قميص أمها الأبيض الستان الملفوف بدانتيلا بيضاء تحيط بالصدر لتبرز مفاتنها. هو نفسه الذي كانت ترتديه «فاتن حمامة» في «سيدة القصر» وعمر الشريف يضمها ليوقف عتاب محبتها فيهدأ غضبها.

تسـرق «ريتـا» ذكريـات «زهـوة» وتخبئهـا فـي آخر شـنطة لها ترحـل في الصباح لعش الزوجية، ويسـرح خيالها في تلك الليالي التي صاحبتها وهي تجلس على سـطوح بيتها وتسـبح في النجوم، وأوراق «ليلـي الجهينـي» ترتفـع بأرقهـا لمخاطبـة الـرب وهـي تتسـاءل: لمـاذا خلقتني بهذا الاختـلاف؟؟؟ لم يكـن القمر متألقًا في مسـاء هـذا الليلة التي تباعـدت؛ لذا كانت تختنـق كثيرًا وتبكي دون سـبب واضح. في ليلـة بدرها فقط كان يتألـق. تفتح ذكرياتها علـى الأمـل وتناجى الرب بفرحـة كبيرة، وهي لا تعـرف لفرحتها سـوى ركعتين تتأمل بهما الله فـي الفجر بعد أن تكون قد توحدت في مسـاء البدر المكتمل. هو نفس العاشق الذي اندمجت معه في ليالـي غيابه كثيرًا، وهـي تبحث عن صديق لا يخونها. صديق كاتم لأسرار وليس مستعدا لوخذها وهو على دراية بمكامن الألم. كان القمر هو حنينها الآمن لطالما كانت تفتش كل ليل عنه حتى تحكي له كل ولعها. هو نفسـه الصديق الذي كان شاهدًا بصمت على كل المناديـل التـي ذرفت فيها تعثرهـا الدائم في الحيـاة وعدم قدرتها على التواصل معها بقلب مثل الصخر. تمنت منه كثيرًا وهي تدعو السـماء ليكون شـاهدًا على الوجد أن يحول قلبها لصخرة كبيرة لا تحـن إلـى شـيء ولا تبكي لحـب ولا يربطها أي وصل بالأشـياء، ولكنـه ظـل سـاكنًا لا يتحـرك وهـو يسـتقبل دعواتهـا المرتفعة له والكسوف يطغى على تألقه، ويتركها في الحنين الذي لا ينتهي.

تتذكر غيابه في ليلة وهي تسعى بطيش متحفظ بين حقول مدرستها الثانوية وهي تعترف بصدق لأول حبيب قالت له: «إني أحبك حتى الموت»، لم تكمل اعترافات عشقها مثلما كانت صديقاتها يمتهن البوح به. قالتها وصمتت وظل كبرياؤها ينزف وهي تؤنب نفسها وتتخذ قرارا بالقطيعة لهذا المحب الذي رافق قلبها ثلاث سنوات وهو لا يعرف أنه المعشوق. نظرت في عينيه بقوة: أنا بأعترفلك بكبرياء ولا يهمني إن أحببتني أم سكنت بين ضلوع أخرى».

نظر لها في صدمة ولم يجد كلمات ليستقبل بها تلك المفاجأة وهو يراها طوال سنوات دراستها تنظر بتناكة وهي تتأفف من الجميع. تمالك دهشته وقال لها: «بأحترمك أكتر ما بحبك».

تركته وظلت ليلتها تبكي دون توقف وهي تكره هذا الاحترام وتتمنى لو كانت مثل صديقاتها قادرة على التغنج بالكلمات وامتلاك هذا العهر اللذيذ الذي لم تمتلكه يومًا، والذي باعد بينها وبين كل قصص حبها.

كانت ابنة ميراث قاس، وكانت سليلة جدات لم يعترفن بالحب بديلًا عن الكبرياء. تجري كالأرنبة لغرفة جدتها التي أنجبت «يوسف» من أول شخص تقدم لخطبتها، وبعد سبعة شهور من الزواج أنجبته ناقصًا وهو يسبح في حمى صيفية شفي منها بقدر واثق، وتوجعت كثيرًا من مياه جدي التي كانت تفور قبل أن يفور جسدها الصغير. نامت في حجرها ذات ليلة بعيدة وهي تحتضنها

وتميـل ببشـرتها الخمريـة علـى رقبتهـا فيسـقط قرطهـا الذهبـي -المخرطـة- وعقـد الزيتونـة اللامع ينـام على صدرهـا ويداعب خصلات شـعرها، ويدها التي تسبح فيها سمكاتها الزرقاء بالوشم تمسح جبهة «ريتا» بآيات من القرآن.

تمتمـت بكثير من الأدعية وتمنت لها رجـلا يحميها. قالت لها وصوتها المسـتكين يعزف نغمات مـن الطمأنينة: «يرزقك يا ابنتي باللي يمشـى وراكي ويغطيكي»، وظلت الصغيرة لا تفهم ما معنى الستر.

قالت لها جدتها وكأنها تخاطب فتاة ناضجة: خدي اللي يحبك وما تخديش اللي تحبيه.

تذهب جدتها بعيدًا وتنسى كلماتها، وتقرر الدفاع باستماته عن «أدهـم» وهي تلقي بكل معارضة الحكماء من عائلتها لهذا الزواج إلـى دائـرة النفي وتسـقط في الحب، وهـو يلتف حولهـا بكلماته، ويبني حولها أسـوارا من الامتلاك الذي فسرته بالحب. تمسح كل الماضي وهي تسـتقبل يوم زفافها. وتبقى غرفة الهجر شاهدة على كل ما مضى.

الفصل السابع

حين تخلت عني عذريتي

مياه جديدة تثقب جدار العفة وفي سريانها تؤرق روحي، أصبحت لا أنام ومن فرط الاختلاف صار جسدي يتوجع وأقدامي تحمل روحًا جديدة تشاركني كل لحظاتي. إذا ودعتنا دماؤنا الأولى فجزء من أجسادنا يغادر إلى غير رجعة وفي مغادرته حنين مؤلم لذكريات التفرد، أنا أحب كل أشيائي وكل قطعة في جسدي تنتمي لي، تنتمي لهذه الروح المجهدة، أنا لم أبكِ عندما اخترقتني قدم حبيبة لكنني بكيت لأن جزءا من ذاكرتي رحل عني وصارت الأوجاع تتسرب يومًا بعد يوم في سروالي لتصرخ بصوت عال وتهزني: «لقد رحلت عذريتك وفي رحيلها لا استكانة لجسد».

وفي الوقت الذي بكيت فيه كان «أدهم» يفتش عن الدم أكثر مما كان يفتش عن الحب وحينما رآه استكان، وكلما كنت أختنق كان يحتضنني بأنامل باردة.

ظل هاجس مخيف يسكن بداخلي من هذه البرودة ومن إنجاب طفل يأتي بما لا تشتهي السفن، وتجرفه بعيدًا عني وتجرفني بعيدة عنه، وتتركه يتيما كما تركني «يوسف» ذات يوم ورحل وظلت ذاكرتي تنزف في سن صغيرة لتغادرني معها السعادة.

سكنت القصر الذي أعده «أدهم». قصر غابت عنه الروح. كلما تجولت في طرقاته الممتدة كنت أدوخ في متاهته. حتى أحضانه كانت تلتقطني كمتحف يرحب بقدوم أنتيكة جديدة، وكلما كانت تلمع نفسها بالتوهج كان هو يكب في فمه أكوابا من «الستلا» حتى يراها بلطشة جديدة.

تتذكر يوم زفافها، وهي تمشي بفرح من غرفة نومها إلى صالة السفرة وهي ترتدي قميص نومها الكريمي الحرير، وشعرها كسمار الليل معقود على رقبتها كقصبة يميل وهي تفتح باب المبرد لتلتقط ثمار التفاح الأحمر وهي تتذكر كلمات جدها في الماضي: «لا تسمحي لأحد أن يقضمك دون وجه حق»، وقبل أن ترد عليه أنه حان قضم التفاحة الحمراء توقفها الصدمة وهي ترى زجاجة كحول تسكن في رف المبرد وتؤرخ لحياة لا تنتمي لبيت أبيها.

التقطت الزجاجة وهو يجري وراءها ويحتضنها أن تتركها وهي تكب محتوياتها في حوض المطبخ وهي ترتجف من الخوف، وترى نفسها تتحرك كـ«زهوة» لأول مرة في مواجهة أي كفر يهدد

إيمانها. ليلتها ظلت تلتصق به وتنام في أحضانه بخوف بارد، وظل هو يضمها وجسـدها يرتعش من أرق الرغبة. ويتعرق بمياه الحب في ليلة شتوية دافئة.

تتوالـى الأيـام وفـي كل يـوم كان حبه يكبـر بأنانيـة وكان حبها يتمـدد كقطعـة بيتزا نائمـة. يلتهمها وهـو يصرخ في نشـوة، وتظل الليالي تتباعد عنها وتختنق في بيتها.

تضـع همهـا فـي تنظيـف البيـت الدائـم وتتذكر «زهـوة» وهي تحثهـا على التنظيـف، وأرقها الـذي كان يلازمهـا فيدفعها لرفض كل الدعـوات التـي لا تلائـم مزاجهـا النفسـي. اليـوم تـودع بطء السـلحفاء الذي ميزها، وتزحف في كل غـرف البيت كمهرة نافرة لتنظف بهوس كل الأتربـة التي تغطى الأرضيات ويصير كل همها هـو ملاحقة بيـوت العناكب في بيتها، تكره ظهوره وهي لا تريد أن تتذكر فشـلها فـي عقد خيط واحد مـن خيوطه حـول رفيقها الذي يشـرد مثلها وكأنه طور هائج في سـباق. عذبها مرارًا بهذا الشـرود لأنه من نفس برجها يتغير موده مثلها في اليوم الواحد ألف مرة في الوقـت الذي ثبت فيـه مزاجها عن حد العقل. فظلت تكره نفسـها كلمـا ترى أحدًا يشـبهها في هذا الجنون الـذي ودعته ذات يوم في بيـت أبيهـا في غرفة الهجر وهي تقرر بقسـوة أن تحبسـه في قفص حديدي سـكن غرفتها كتبت يومها كلمات كثيـرة عن تغير المزاج

القاتل وعن تلك الليالي التي كان يتركها فيها لا تعرف من هي. تتحرك بروحين في جسد واحد ولا تكف عن الملل فقط كانت تبكي ' طاهر» الذي كان من نفس برج السرطان المخيف وهي تشتكي له من التحولات التي لا تهدأ. فيحثها على دفع هذا الضيف المجنون وغلق الباب في وجهه حتى لا تتعذب مثله باللحظات التي كان يمر فيها وهو لا يعرف مثلها كيف يخرج منها سالما. قال لها في إحدى الليالي البعيدة:

- غيري اتجاهات التفكير المخيفة واتركي كل الغرف التي يهاجمك فيها، واكتبي اسمكِ داخل دوائر على صفحات بيضاء، وكرري تلك العادة حتى ترحل عنك خيوط الجنون.

كانت تغلق معه الهاتف وتظل تكتب اسمها وتسجنه داخل دوائر ممتدة بعدها يتمدد جسدها بأريحية ويتبستر وكأنه خميرة زبادي ناعمة، وترتخي كل أعصابها وتنحل وتتركها في يوتوبيا سماوية وكأنها تنتمي لتلك الليلة التي صعد فيها المسيح لربه.

اليوم هي في مواجهة نفس الجنون مع «أدهم»، وهو يغلق كل غرف البيت ويجعلها تتحرك في غرفة واحدة هي غرفة نومها التي سوف تشهد فيها مداعبات عشق فجرية، وبعد أن ينتهي يتركها ليرتشف أكوابًا من عصير البرتقال المذذ، بعده ينام ويعطي ظهره

لهـا ولا يتكلم، فقـط يدفس عيونـه المرهقة من التفكير في سـرير الوحدة وهو يريد عالمًا خاصًّا لنفسه لا يكون فيه أحد غيره.

تعذبـت كثيـرًا من هذا الحالـة الخاصة وهي تريـد أن تلتصق به خوفًا من الأشباح التي كانت تراها تتحرك في غرف البيت فتتركها ترتجف، وكلما حاولت القبض على أي منها بشـجاعة مرة تقبض علـى الفـراغ فتتركها في الخيبـة. تتذكر تلك الليلـة التي كانت تنام فيها بجانبه ويد قوية تضربها في ظهرها فتستيقظ وهي تصرخ وتراه بجانبها نائما في هدوء وتعرف أنها يد الشيطان.

هي نفس اليد التي سـوف تضربها كل يوم بعد آذان الفجر وهي تنـام معه بعد ممارسـة الحب وهـي تتجاهل قرآن الفجـر. فيغفيان سـويًّا فـي نـوم عميـق. سـتتكرر معهـا الضربـات بعـد كل فجرية وسـتعرف أنها لا تمت للشيطان بصلة ولكنها يد الملاك الذي كان يضـرب «زهوة» وهي تتجاهل صلاة العشـاء وتنام وهي تستسـلم لإبليس.

لـم تكد «ريتا» تنتهي من شـهر العسـل حتى احتـل الأرق بيتها كضيف دائم يسـتولي على كل الأشـياء الجميلة التي كانت تراها، كانـت تغلق غرف البيـت كلما قامت بتنظيفها حتى تمنع الأشـباح من التسـلل داخل طرقات شقتها وتتحرك في الليل وزوجها غائب عـن البيت بتوجس مخيـف. تلتقـط الهاتف وتؤكـد لـ"زهوة» أن

شقتها سكنتها العفاريت، تسكتها بقوة وهي تردد في رهبة: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة.. أعوذ بالله من كل جن أثيم».

تحاول سرقة الهواء من البيت فلا تجده وعندما تسرق أنفاس «أدهم» لا تجدها. لقد كان عفويًا وجميلا ومجنونًا في خطبتها، وكان الهواء يتسلل لهما بأريحية ويملأ غرفة الونس التي كانا يجلسان بها. في بيت أبيها كان كل شيء صادقًا. ما الذي تغير لا تعرف؟؟

تسرح «ريتا» في الصوت الذي يردد «لقد كان... لقد كان، ويبدو أنه لم يكن ولن يكون». تهرب من الأصوات التي تتصاعد في قلبها وهي تلتقط المكنسة الكهربائية وتبدأ في شفط الأتربة. وتسمع أصوات الهواء تندفع بقوة إلى السجاجيد الحمراء وكأنها تقتل الأشباح وتترك آثر الدم عليها شاهدًا على الجريمة.

هو نفس الدم الذي سوف يتدفق بغزارة من بيت الرحم وطفلها الأول في طور التكوين، وحين تراه يندفع تفقد الوعي، وتستيقظ في غرفة الطبيب وهي تتقيأ من رائحة البنج وجسدها مشفوط كعود قصب في ماكينة عصارة. يضم الطبيب قدميها ويمسح بيده آثر الدماء ويخبرها بثبات «أنها فقدت الجنين». تصرخ بعدها صرخات متدافعة ويد الطبيب تستل حبلا مطاطيًا وأيادٍ كثيرة

تقيدهـا، ويندفـع سـن إبرة لجسـدها، ومادة سـائلة تنفجـر في كل دمائها فتسـكن الشرايين النافرة من الصدمة. فتترك جسدها مبسترا وتظل عيناها تذهب بعيدًا حتى تغفو كليًّا.

تحلـم في مناماتها بسـحب الليـل الناعمة، تلتقـط طفلها وهي تجري لها ثقبًا أسـفل السـرة، وهي تضحك من هذه الزغزغة التي تذكرهـا بمداعبـات الحـب في ليلـة شـتوية دافئة تلمع فيهـا ألوان الطيف السـبعة ومطر خفيف يسكن السماء وهو مهيأ لفض بكارته مـع سـحب موجبة تزرع في سـريانه أطفـال المطر، وهي تتسـاقط بغـزارة علـى شـعرها وطفلها ببشـرته البيضـاء الكريميـة يضحك وكأنه المسـيح يتكلم في المهد وينادي عليها «ماما لن أتركك دون ابتسـامة»، تبتسـم هي في سـريرها المخضـب بالدم ويـد الدكتور «ضيـاء» تلتقـط طفلهـا الحنـون، وجسـداهما المغطيـان بالبياض يرتفعان كصعود الملائكة ساعة تجلي الإله في الفجر.

ترى وجه «يوسف» جالسًا في السماء وهو في انتظار حفيده ذي البشـرة البيضاء لضم خدوده الحمراء المتوهجـة إلى وجهه، وهو يتذكـر سـخونة خـدود «ريتا» وهـي تودعه وخدهـا يلاصق وجهه المعـذب ونظـرات عيونها في الاحتضـار تعطل قبـض الروح من مـلاك الموت، تنبهت «زهـوة» في تلك اللحظة الحاسـمة لتحايل الصغيـرة على عزرائيل، الذي لم يكن قادرًا على الحلول في غرفة

يهاجمها الحنين من كل جانب. ولأن «زهوة» كانت مهيأة لتلك اللحظات. تحركت بوعي أرملة قادمة في الطريق لدفع الصغيرة نى لا تلاحق عينيها عيون «أبيها» فتغضب الملاك. تأسفت له ؤتركت «زوجها» في مواجهته وجها لوجه، والصغيرة تصرخ خارج الغرفة «لا تتركني دون ابتسامة». جدتها لأبيها كانت تبكي وراء الباب وهي تحيي شجاعة «زهوة»، وتقول لها: «عين العقل روحه مش هتطلع طول ما هو متشعلق في عينيها».

الآن «ريتا» في مواجهة ابتسامة الصغير وكل شراشف البياض الملوثة بالدم تلتقط روحها التي تسبح بعيدًا في السماء، استيقظت في ساعة صبحية وهي تبتسم وتردد بين أحضان العائلة: «لا تتركني يا حبيبي دون ابتسامة»، وحين مال «أدهم» على وجهها وهو يهمس لها: «سامحيني ما قصدتش أأذيكي»، كان صوتها يتقطع وهي تكرر في هلوسة: «لا تتركني دون ابتسامة»، لتعود للإغماء من جديد.

تظل في سريرها وهي تحلم بكل الأحبة الذين رحلوا عنها إلى بيوت أبدية طالما كانت تقف أمامها مذعورة وهي تسرح بخيالها عن الأرواح التي تسكن المقابر.

تتكرر الإغماءات وجسدها في البحر يغرق وكلما حاولت الطفو فوق سطحه تدخل في دوامة صغيرة. يدها تحاول السباحة

بوهـن فتطفـو موجة صغيرة تتعلق بها كأمـل متفتح لدفعها بالقرب من الشـط. سـرعان ما تتحول ليـأس كامن وأمـواج هائجة تبتلعها فتتركهـا تغرق بعمق في الدوامات التـي كونتها لتلتف حول «ريتا» وهي تشـفط بطنها فتصرخ: «ابني.. أبني»، تدور الدوامات بسرعة جنونية وصوتها يردد: «ابني.. ابني».

يتبدد صوتهـا في رائحة الماء المعتق بطعم الأسـماك وتغمرها رائحة الموت، وتترك جسـدها في رقصتـه الأخيرة بين الدوامات. يد قوية تدفعها من مشط القدم لتخرجها من تلك العصارة الدائرية فتطفو على السـطح وشـعرها كسـمار الليـل يتمدد علـى الأمواج الخفيفة التي تتراقص على المياه.

تغمرهـا رائحـة الإله، وسـمكات صغيرة بلون القرمز الشـفاف تغرز في جسـدها شـوكها اللين لتوقظ غفوة جلدها الميت فتشـعر بالشـوك في كل جسدها فيدفع يدها للتجديف في المياه من جديد وهـي نصف نائمـة، ترقص السـمكات في فرح وتتمدد في شـكل أسطواني بطول جسـدها الخمري الناعم، والشوك يستفزها ليقظة حـرة. يتدفق الدم فـي كل عروقها باندفاع فيحـرك الرأس المعطلة لإنقـلاب دائـري متكـرر، فتزحف علـى المياه كثعبـان حتى تصل للشـاطئ، والنهار ينشر أشعته الرمادية التي تغفو في سحاب أبيض فيمـلأ جسـدها بالضـوء البكر، تلفـظ كلمات الحمـد وهي تلهس

وضربات قلب سريعة تحدث لها ارتباك مؤمن. تستيقظ من الحلم وتتمدد على السرير بنصف قعدة ولا ترى الدم بين أفخاذها وتشعر بأنامـل صغيـرة تخيط لها ثقـب الرحم المنفرج ورغبـة تتحرك في بـطء وخيوط الأنامـل اللينة تقضم جلدها الحسـاس وهي تلضمه مـع جزئـه الشـبيه. تنتهـي العملية، وهي تصـر على حمـل أمتعتها مـن قصر «أدهـم» لتنام في بيت «يوسـف» بسـكينة وعقد صغير لم يدم شـهور تطالب بتحريره وتختار العـودة لغرفة الهجر من جديد وتـودع الطـور الهائج وهي تصرخ في وجـوه العائلة «الحب أخطأ الاتجاه.. الحب أخطأ الاتجاه».


سما
للنشر والتوزيع

أنثى العنكبوت

تتباعد الذكريات بعيدًا، ولكن نعومتها لا تتباعد، تخصها وحدها لكنها تستبدلها وقت الخطر بسموم العقارب، لا تحب أحدًا أن يحدق في وجهها كثيرًا؛ حتى لا يخاف من هذه القدرة على الإختراق، أو يلمح أصابع القدم المتشدقة بالغرور والنافرة من الحياة والتي تلتصق لحظة التحديق فيها بالأرض، وهي تضغط في دأب عليها كي تستمر في المشي طويلاً كالنمل الأحمر ولا توقفها الحفر العميقة. عيونها مثلها عصيّة على الفهم ضيقة لكنها تتسع بحدة وتحدق في الفهم كي تستنطق عجزه. تتشكل شبكات حول حدقة عيونها العسلية بلون ممزوج من البياض الكريمي الذى يشبه لون السحاب الممزوج باللون الأزرق . أصابع يد متوسطة الطول يتشكل كل ظفر منها على هيئة دائرة، يسكن تحت كل إصبع عرافة تدعوك إلى معانقتها وخطف قبلة سريعة، وفي اللحظة التي تهم بتلبية الدعوة تسحبها برفق حذر فتترك الأصابع الممتدة لها وهي مبعثرة في الخيبة. ترقص السم
تختفي تحت نمشها الكستنائي المحروق الذي
ذراعها فيطفو على الجلد شعر ذهبي يوهم العاش
بحيرة تختبئ فيها سمكات الرغبة.

تصميم الغلاف : إيمان صلاح




ISBN 977-6451-83-7



